



طائفتي الجميلة

منشورات الجمل

رواية

مرتضى كزار

طائفتي الجميلة

منشورات الجمل



مرتضى كزار، روائي وسينمائي عراقي، ولد في الكويت سنة ١٩٨٢، وتخرج من كلية الهندسة بجامعة بغداد سنة ٢٠٠٤، صدر له: **مكنسة الجنة**، رواية، عمّان ٢٠٠٨؛ **السيد أصغر أكبر**، رواية، بيروت ٢٠١٣.

مرتضى كزار: طائفتي الجميلة

الطبعة الأولى ٢٠١٦

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com



(١)

يستطيع أي إنسان تعريف نفسه بطريقة ما. إلا أكثم رائد شهاب حيران كلافة. ومن هو أكثم رائد شهاب حيران كلافة؟ إنه ببساطة أنا.

سأختصر لكم وأقولها من البداية، أنا ذلك الشاب الذي أيقظوه في الساعة الثالثة فجراً في الخامس من آذار سنة ٢٠٠٣. لم ينهض بسهولة فرفسوه ثم ضغطوا رأسه بالبسطال. كان عليه أن يقول آخ مرة واحدة. فقال آخ سبع مرات. لأن وجهه استطال وتربع وتقوس. بصراحة جرّب وجهه كل الأشكال الهندسية في تلك الساعة. وهذا ما تفعله البساطيل عادة. تحولك إلى طينة خام قابلة لكل الأشكال.

«إذا كنت أنت الدكتور أكثم فتعال معنا»، قال الضابط الواقف عند الباب مراقباً جنوده وهم يشغلون كل فضاء الغرفة.

كنت متدثراً ببطانية مرسوم عليها نسر القوة الجوية العراقية. أتركه يركبني كل ليلة وأغفو تحته.

وجدت نفسي واقفاً في زاوية من زوايا الغرفة، أتلقى صفعة على رقبتي فترتطم جبهتي بالجدار. كان هذا ضرورياً جداً كي أصحو واستمع إليهم، أي شخص مثل أكثم عليه أن يعاني ذلك كي ينفض أحلام الليالي الماضية من رأسه. ساقوني معهم، سحلوني وطافوا بي على ممرات المستشفى والأقفاص والمخازن.



نسيت أن أقول؛ إن هذه هي مستشفى البيطرة الخاصة. بناية تابعة لديوان الرئاسة. كل ما فيها تابع للرئيس، من الطبيب البيطري إلى العناكب والخيول والقردة والخنازير والزرافات والغزلان والثعالب والأرانب والفراشات. من النمور والأسود والطواويس إلى الكلاب والسلاحف والقطط والأسماك.

رجلاي تخطان الأرضية وأنا مجرور من ياختي. رسمت بكاحلي خطين متوازيين لا يلتقيان. أكسر قوانين الهندسة الإقليدية واجعلهما يلتقيان أحياناً إذا ركلني الضابط. عرفت بأنهم يقودونني إلى صالة العمليات. عرفت ذلك من الصوت الذي تطلقه القوارض في ذلك المكان. إنها تردد جملة منغومة واحدة. تعيدها وتصقل لحنها. أكثم رائد شهاب، أكثم رائد شهاب، أكثم رائد شهاب.

ركض الضابط وتقدم موكب السحل، وفتح الباب لخمسة جنود غلاظ سمان بشوارب ثخينة يمكنكم استعمالها كأجنحة تطيرون بواسطتها إلى بيوت خالاتكم في العيد. كل هؤلاء كانوا يرفعون الجزء الميت من جسدي ويدخلونه صالة العمليات. وهناك وجدت جميل يحترمني بانتظاري. جميل يحترمني اسمه جميل يحترمني، أقدم ممرض بيطري أعرفه. يسمونه يحترمني لأنه عاش زمناً إذا ذكر أمامه فلاناً، قال فلان يحترمني، وإذا قلت له هل تعرف علاناً، قال علان يحترمني، التصقت يحترمني به مثل اسم أبيه، وقد صار ذلك سبباً وجيهاً لبعض معارفه في عدم احترامه. هو نفسه صار بذيئاً ويتعمد إيذاء الآخرين كي لا يبادلوه الاحترام.

علّقه الجنود منكوساً من قدميه. يتدلى من السقف ويجري منه خط من الدماء والبصاق، طلبت من الضابط أن ينزلوه لأنني سأحتاجه في



الصالة، عليه أن يغسل الأدوات ويحضر الفوط، وضع الضابط إبهامه على عيني، ظل يضغط ويضغط ويضغط، تركت رأسي يستريح في الكرسي الجماعي الذي صنعه الجنود لي من ظلال رؤوسهم، كنت أغط في فضاء من الشوارب، وأقاوم الألم في عيني، وحينما رفع إبهامه احتجت خمس دقائق حتى تتوازن ألوان الغرفة في عيني.

كانت الصورة بالأبيض والأخضر، فيها جميل يحترمني يهبط على البلاطة. يرتطم يافوخه ثم تهبط مفاصله بالتدريج عندما بدأ اللون الأحمر يدخل الصورة. شيئاً فشيئاً استعدت الألوان الطبيعية كافة التي صادرتها ضغطة الضابط.

لم أعرف بعد ما هو المطلوب مني.

كانت كعوب البساطيل الراكضة تغزو الصالة. شبابيك الألمنيوم الطويلة لا تُظهر إلا السيارات الخاكية والخوذ والرتب والنياشين وبخار الخوف الصاعد من أفواه الجنود، يحدث ذلك لأول مرة، في العادة لا تستدعي جراحة حيوان في مستشفى البيطرة كل هذا الصخب واضطراب الألوان. لا أحد يهتم لحيوان على دكة التشريح. لم يصادفني أن اعتنت الرئاسة بحيواناتها واستنفرت قوات من هذه النوعية مثلما حدث في ذلك اليوم، وبالنسبة لجميل يحترمي فقد تحسس مقدار الكتمان ودرجة الخطورة والسرية واشتعلت في مفاصلة عزيمة الفزع. أخذ الصالة طولاً وعرضاً. يراكم الأشياء التي لا فائدة منها، ويبحث متظاهراً بالنشاط والجدية عن أشياء لا يعرف ما هي في الدواليب والجرارات. حاولت أن انبهه إلى أننا لا نعرف بالضبط ما هو المطلوب منا لكن حركته كانت أقوى من أي مؤثر خارجي، وحدها صفعات الجنود يمكنها ايقافه.



شعر الضابط بأن عليه الشروع بالموضوع، أمرهم بمغادرة القاعة، وجعل إثنين من الجنود عند الباب. أمرهم أيضاً أن يعم الهدوء في الخارج. كل أوامره تحققت بسرعة. وخلت الصالة لي وله ولجميل يحترمني. ما زلت طبعاً أتعافى من ضغطة ابهامه وأستعيد الألوان في عيني، لم التفت بعد ولم أتحرك، أرغب بإمالة عنقي لكني أخاف آلام الرضوض والخدوش التي خلفتها ركلاتهم وأخمص الكلاشنكوف على كتفي.

قبل أن يخطو الضابط باتجاه كرسي دوار في مركز القاعة ليجلبه ويستريح عليه، لاحظت أن جميل يحترمني يقف متجمد الملامح مصوباً أنظاره باتجاه واحد، نحو شيء ما خلفي. هناك في بقعة قريبة إلى يميني؛ حيث لم أكن قادراً على الالتفات. أصدرت مؤخرة الضابط صوت هواء حبيس وهي تهبط على الكرسي، انحنى وقرّب وجهي من وجهه. وضع حنكي بين كفيه وسحبه إلى الأمام. وقبل أن يطلق بصقة من فمه استعمله لنطق العبارة التالية:

«شوف وراك يا ابن العايقة».

ساعدوني حتى أرى ما ورائي. تقدم جميل يحترمني وأدار جسمي مع الضابط. شعرت بنوبة دوار خفيفة ورغبة بالتقيؤ وهم يحركون جسدي سددت لعيني الضابط نظرة عتاب عن كل هذا، حاولت أن أجعله يشعر بالذنب والندم على ما فعلوه معي، لم يكن هنالك من داع لكل هذا. أنا مطيع وحباب وجبان ويمكن تركيب آلاف الصفات البشرية في رأسي بالتلقين وحسب الحاجة. أنا جوراب محشو بتمائم الجبن والقناعة. أنفذ كل ما يطلبون في العادة من دون تأخير. قلت له كل ذلك



وهو يحرك جسدي ويديره. لم يكن مهتماً أبداً، وحينما رسى جسمي في مكانه الصحيح واتخذ الزاوية المناسبة لرؤية الشيء الذي خلفي. نسيت كل ذلك العتاب وانشغلت به.

الحيوان مغطى بشرشف أبيض، يشغل المصطبة كلها وجزءاً كبيراً من فضاء الصالة. كان ضخماً وساكناً ويبعث الريبة. يحق لجميل يحترمني أن يترك فكه السفلي متهدلاً من القلق. لأنه لم يشاهد في حياته حيواناً في هذه الصالة بهذا الحجم.

«باشروا شغلكم بسرعة، بسرعة، بسرعة، أي ضرر يصيبه سأشنقكم هنا، بسرعة، شوف هذا، لك بالعجل ابن العايقة». قال الضابط وهو يسحبني نحو الحيوان المسجى على المصطبة. كان النشاط قد دب في عروقي فجأة وصرت قادراً على التلفت والارتجاف.

وقفنا نحن الثلاثة حول مريضنا العملاق. كشفت الشرشف عن جسد الحيوان. الضابط يحدق في عيني ويراقب باهتمام بالغ تبدلات ملامحي بينما الغطاء ينكشف رويداً رويداً.

انساب الغطاء من الجسم الصلب بسرعة وانكشف الحيوان الرمادي الضخم. إنه تمثال الرئيس ممدداً على دكة التشريح. هذا تمثال الرئيس في صالة العمليات. الرئيس من النحاس يضطجع بيننا في صالة عمليات مستشفى البيطرة الخاصة.

يده اليمنى مرفوعة لتحيي المروحة السقفية، جفناه مشرعان وشعره مخضبٌ بالصدأ. اضطررت لمعانقته لا شعورياً بعد ان تحرر كلياً من الغطاء. خفت من وقوعه على الأرض. صرخت على الضابط ولم



يستجب لصوتي لأنه يعرف جيداً أن الحالة التي أمرّ بها تستلزم نصف دقيقة قبل أن تتلاشى وأتفهم حالة الحيوان الممدد بين يديّ.

بعد ذلك اليوم سيصبح كل تمثال في العالم حيواناً في دقيقة واحدة باليوم، هي الدقيقة التي أشاهده فيها.

هل نجحت الآن في تعريف أكثم رائد شهاب. لا أظن، لا يحدث ذلك بسهولة، وفي كل الأحوال أنا لن أتوقف عن فعل ذلك. تعاملوا مع الموضوع كهوية أحوال مدنية طويلة قليلاً، بطاقة شخصية من عشرات الصفحات.

بعد انكشاف تمثال الرئيس تبدلت أوضاع الضابط. لقد فعل وجه الرئيس فعلته معه. صار أكثر ليونة ثم أكثر هدوءا وأقل رعباً. ثم تحول إلى شخص اعتيادي، بالأحرى تحول إلى جبان مثلنا.

«ناوشني المطرقة»، قلت لأحد الجنديين ذَوَي الوجوه المجنحة بالشوارب، لأثبت لجميل يحترمني أن الدار أمان والخوف تبدد، تبدد وانتهى لأنه صار حالة عمومية.

ليس على الضابط أن يشرح لي ما الذي يجب فعله وما هي حالة المريض. فصوت الكلب المحشور داخل التمثال قد قال كل شيء. استيقظ واستنجد بالنباح حينما لامسنا سطح التمثال. كان يئنُّ وينبح ويتفاوت صوته بين طبيعته الكلبية وبين طبيعته القصوى ككائن محصور داخل وجه الرئيس. لم يكن لائقاً في تلك الليلة ضرب دماغ الرئيس ولا ثلم وجهه. عليّ أن أعثر على وسيلة صحيّة بالنسبة للتمثال يخرج فيها الكلب حياً أو ميتاً.

دنوت أسفل الرئيس حيث أطرافه والفتحة التي دخل منها الكلب



النحيل سيء الحظ والسمعة. رأيت آثار مطارق، وخدوشاً أجراها الضباط لتحرير الكلب من دون العبث بسلامة التمثال. ومن الثغرة المؤدية إلى جوف التمثال لم يكن سوى ذيل الكلب يوميء لي في تلك العتمة الواسعة. ذيل جوزي اللون يسرح في ثقب أسود.

أكد لي الضابط أن المهم هو إسكات الكلب ونهيه عن النباح وارجاع التمثال إلى منصته هادئاً. تغيرت طبيعته الثعلبية وتوسلني وهو يمرر أصابعه على ياخته المكوية بعناية بالغة.

«بسرعة دكتور، عالأقل اكتم نباح الكلب».

«ممكن ترفع معي، نريد أن نقلب الرئيس على بطنه».

ثم طلبت منه مساعدتي في خض الرئيس كي يتسنى لي إجلاس الكلب في وضعية مناسبة. وكان الرجل مطيعاً مثل خادم في ألف ليلة وليلة.

جميل يحترمني يتلصص علينا من نافذة الباب وأظنه كان يسجل في رأسه ما الذي يجب سرده على أهله وخلانه عن تلك الليلة الرهيبة. أومأت له أن ينصرف وأنا العارف بأنه لن يطيعني. وأشرت للضابط أن ينتظر هو الآخر خلف الباب وسيرى مني نتيجة سريعة تعجبه.

يتذكرون جيداً كيف وضعت يدي في جوف الرئيس مثل قابلة عجوز واسمعتهم موسيقى العبث في بطون التماثيل، وأغاني الكلب المنحوس وهو ينعى نفسه. ثم شاغلته وهو يفاوضني في الخروج معاقاً من دون التبول في أنف الرئيس. كان أقصى ما يتمناه جميل يحترمني والضابطان هو الظفر بالتمثال بعد نصف ساعة. خمس دقائق أو سبع وسمعوا أقدام



الكلب تضرب الأرضية. ثلاث قوائم بالتمام والكمال تنثني بأريحية. وعزيتهم جميعاً بروح القدم اليسرى التي بقيت في بطن الرئيس.

في صالة العمليات أنجب الرئيس كلباً أعرجَ أسميناه خاكي. خاكي اسم نتداوله أنا وجميل يحترمني، فلم يكن من السلامة استعمال ذلك اللون كاسم لكلب.

اختفى التمثال مع الضابطين والضوضاء الخائفة من خوفها في الباحة الأمامية للمبنى. واحتفلنا أنا وجميل بميلاد خاكي. وظل في بالي، في صفحة الوجوه الأثيرة، وجه عجوز في الزجاجة الخلفية لإحدى سياراتهم، كان ينظر إلي ويقضم تفاحة آدم في رقبته، يبتسم ويبكي، يحرك شفتيه وحاجبيه في فوضى وجهه، كما لو كان يفقد السيطرة على ملامحه.

العجوز الذي لم يكن وجهه غريباً علي، يشكرني بطريقته. ويقول لي بأنه النحات. صانع التمثال والسجن الذي تخلص منه خاكي. العجوز الذي لم يكن وجهه غريباً علي. لا ينظر إلي تحديداً. عيونه تركز في كل شيء أمامها بالدرجة نفسها. أعرف هذا العجوز جيداً. أحفظ ملامحه وروائحه وحركاته. إنه السيد حَكم بشحمه ودمه.



(٢)

قبل عشرين سنة كان العجوز حَكَمْ عجوزاً أيضاً.

أشاهده كل مساء في الشارع المؤدي لسينما إنليل. يضع على صدره طابعة يدوية ويشدها بحزام على رقبته. يكتب واقفاً وعيناه نحو السماء. صوت أصابعه وهي تضرب الحروف تسمعه النسوة في مطابخهن وطالما خرج له أرباب البيوت يطلبون منه الكتابة في مكان آخر.

كان الجميع يطلبون منه الكتابة في مكان آخر متذمرين من صوت الطباعة المزعج. ثمّ اهتدى في الأيام اللاحقة إلى مكان مناسب. فقد شوهد في المرافق العمومية حيث يسهم صوت طابعته بتضييع الأصوات الخارجة من المراحيض. فكان يحصل على ربع دينار من كل شخص يخرج من الحمام مع ابتسامة خجولة.

في تلك الأيام كان أبي يحذرني من السلام على حكم. إذا خرجت إلى بيت معلمتي الخصوصية، يقول لي لا تسلّم على الأعمى ولا تشعره بمرورك. وفي كل مرة أخالف أبي وأقف أمام العجوز حكم. اقترب منه وألصق أنفي بدشداشته. أقضي وقتاً في تلمّسه من دون أن يشعر بي. أجرّب أن أكون قريباً جداً من عالمه. أتلصص على الظلام الذي يعيشه. لكنني لا أسمع شيئاً سوى طرقعة الحروف على رؤوس الجيران. فيخرجون له ويطردونه أو يدلقون عليه الماء.



حكم طويل القامة.

لكن منظر الطابعة المعلقة على صدره يجعله رجلاً مزوداً ببالكونة. طابق سفلي هادئ وبالكونة تصدر الضجيج ورذاذ اللعاب وشتائم نصف مفهومة، فالارتفاع الشاهق لطابعته جعل كتابته في مأمن من قراءة الناس لها. وإذا كان يمشي ويطبع فيصبح ذلك عسيراً أكثر لأنه يماوج طابعته مثل زورق فلا يستطيع أحد أن يعرف ماذا يكتب حكم. لحقت به ذات مرّة وهو يختط الشوارع والدرابين ويطبع، ما اللون الذي تراه؟ لكنه لم يسمعني وبقيت حتى تخرجي من المدرسة المتوسطة أظن أن حكم الأعمى يعيش في عالم أحمر. لأني كنت أقلده وأغمض عينيَّ ولا أرى سوى الحمرة داخلهما. في الواقع كنت لا أفعل ذلك إلا في غرفة أبي وأمي حيث اللمبة الحمراء تضاء دائماً.

لدى حكم عادة أخرى. إنه نحات ماهر. اطلقت عليه صحيفة الجمهورية ذات مرة لقب النحات الفطري الأعمى حكم. متعدد المواهب وكلب ابن ٣٦ كلبا وكلبة رطبة مبلولة وعاهرة. حسب التعريف الذي يحبه حكم خارج مانشيت الصحيفة. تعريف الشعب وصبيان الشعب وشوارع الشعب. إنها الشتيمة المدائحية التي يطرب لها ويبتسم إذا سمعها. فالتصقت به والتصق بها.

تقدم في الثمانينيات خلال الحرب الإيرانية العراقية لمسابقة نحت وجه الرئيس اقامتها جمعية الفنون في بغداد. وقرر أن يترك العبث بتراب الشاطئ والطين الاصطناعي. نحت لهم وجه الرئيس وتخلص من طابعته مؤقتاً واستراحت منه، شوهد يحمل رأس الرئيس الضخم ويحضنه بذراعيه ويمشي مسنداً كتفه على جدران المحلة، كان المنظر سريالياً



ومخيفاً بالنسبة للجميع. وحينما فاز العمل بالمرتبة الثانية سمعت الزغاريد في محلات سبع أبكار وراس القرية وسوق الغزل. أصبحت الزغاريد وصيحات الصبيان المؤدبة تلاحقه بعد أن كانت الشتائم والأغاني الداعرة لا تترك له خطوة في الدرابين والسكك.

حينما غادر الضباط ونقلوا التمثال المطروح على دكة تشريح الحيوانات إلى سيارة نقل مقفلة.عمّ الهدوء السريع أروقة المستشفى. خرجت مع جميل يحترمني إلى البوابة للتأكد من مغادرتهم كلياً. الحيوانات أيضاً تدثرت بالهدوء كما لو كان معطفاً كبيراً يلف المكان كله.

عند البوابة، كانت آخر سياراتهم تنعطف وتتوغل في خط السير العام. اختيرت هذه المستشفى لتصبح في عزلة داخل غابة صغيرة من النخيل وأشجار الأكاسيا. لذلك يبدو الطريق المعبد المؤدي إليها متعرجاً تحنو عليه الأغصان أحياناً وتتطفل على خطوطه. ونحن نغلق البوابة سقط جسم غريب من آخر السيارات. تظاهرنا بعدم الاكتراث واغلقنا البوابة ودخلنا إلى حيث كنا.

قصد جميل يحترمني مصدر الصوت الحسير في صالة العمليات حيث خاكي يئن من ركلة سددها على بطنه الضابط ذو الوجه المجنح بالشوارب. جعلته يرتطم بالجدار ويسقط في الزاوية. يلملم جسمه ويتظاهر بالموت أو النوم أو الخجل.

بعد أن أسرع جميل نحو الصالة، خالفته وأسرعت عائداً إلى البوابة. فتحتها، وحدقت في الطريق حيث الجسم المتخلف من سيارات موكب التمثال. بخار وضباب وبرد وبقايا خوف تحجب الرؤية في عيني. التفت



إلى باب المستشفى الداخلي وتأكدت من وجود معطف الهدوء يغلف المبنى ثم خطوت باتجاه الجسم الغريب.

بعد خطوات استطعت أن أحدد بأنه عجوز. لحية فضيّة وبشرة متسخة بالرماد والبثور وكوكتيل من القذارات والدماء المتيبسة. هذا هو حكم النحات والطباع الأعمى. انحنيت على جسده بعد تأكدي من اختفاء رتل السيارات بعيداً عن مدى الرؤية.

«هل تعرفني؟، ذهبوا، لا تخف سأدخلك إلى المستشفى، كلهم ذهبوا، ارفع جسدك قليلاً».

لا يبدو أن حكم يتذكرني. بدأت بسحبه وتخليص جسمه النابت في الأرض، انتزعته وضغطت كفه، نهض وحاول الوقوف ثم سقط. استجاب ليدي وبدأ بالامتثال لها. دخلنا إلى غرفتي. خلعت جواربه وغمست قدميه بقدر ماء دافئة. وبدأت باستجوابه ومضاحكته.

جاء جميل يحترمني محتضناً خاكي. خاكي تأمل غرفتي وطاف بعينيه على تفاصيلها. ثم أفلت نفسه وقفز على السجادة وهرب بعد مشاهدته للنحات الأعمى. لاحظنا كلنا كيف أن قوام خاكي نصف مختل. ساقه مكسورة وأذناه تنزفان. أعدت أسئلتي على حكم.

«أنا أكثم هل تتذكرني، كنت تطوف في حينا ممسكاً طابعتك، تنقر وتصف الحروف، اطمئن لا أريد أن أعرف منك ماذا كنت تكتب، أريدك أن تشعر بالأمان هنا، هل تعرف كيف تشعر بالأمان؟، بسيطة، أنا عندي طريقة هل تحب سماعها؟».

لا يجيب حكم. خرج جميل وعاد بطاسة فيها شوربة شوندر. جربته وحاولت فتح فم حكم وحشر الملعقة بين شفتيه لكنه استاء منها وحرر



من عينيه ووجنتيه تعبيراً عن السأم والجزع. التلفزيون في غرفتي يعرض مسرحية الدمى الليلة الكبيرة. كانت دمية مدرب الأسود تتمايل وتغني أغنية لسيد مكاوي. أضواء الغرفة خافتة سارعت في جعل حكم يغط في سابع نومة، بينما مدرب الأسود المصري يصيح داخل الشاشة: *أنا شجيع السيما... أبو شنب بريمة.*

لم يسعفه الحظ طبعاً لسماع نصيحتي الخطيرة للشعور بالأمن والتخلص من الخوف. كنت أجربها وأنا طفل. وحيداً مع أبي والتلفزيون. تفتح كفك وتحدق فيها طويلاً. ثم تغلقها، وتفتحها، تغلقها وتفتحها، تغلقها وتفتحها، تغلقها وتفتحها، راقب خطوط يدك، سترى فماً واسعاً يتحدث إليك، ويقول لك: مم أنت خائف.

«أخاف من فلان وفلان وفلان»، ضع بدل فلان أسماء الأشياء التي تخيفك، ثم استمر في غلقها وفتحها، ودع الوحش يخاطبك!.

«أخاف من كذا وكذا وكذا..».

استمر، لا تجعله يسكت.

«أخاف منكم جميعاً..».

استمر، غلق، فتح، غلق، فتح.

«أخاف منك عمي الوحش الطالع من كفي».

لمّا كبرت قليلاً ابتدعت طريقة حقيقية للتخلص من خوف اليوم القادم، افتح كفّي أيضاً، أنظر إليها قليلاً، ثمّ أضعها في جيبي.

نام حكم جواري. وفي الليل كنت أتحسس بقعة دفء في حجري.



لم أفزع وأصرخ حينما عرفت بأنه خاكي. تسلل ونام في المساحة الفاصلة بين سريري وفراش حكم. ثم استقر في طيات بطانية النسر.

أول شيء تم في الصباح هو نقل حكم إلى أحواض السلاحف. وهذا لم يشعرني بالذنب لأن أحواض السلاحف بلا سلاحف، وبلا مياه أصلاً. لم أشاهد منذ تعييني هنا سلحفاة مريضة واحدة. المهم هو اخفاء حكم، والأهم من ذلك أن يصبح حكم سلحفاة خلال الساعات القليلة القادمة، لأننا لم نخطط لإيوائه طويلاً. بالنسبة لي سأكون رحيماً لثلاث ساعات واطلق رجليه للريح بعد أن يخرج الخوف من المستشفى.

أعطيته نسخة من كتاب كليلة ودمنة، وهذا ما أفعله مع أي صديق جديد، إنه كتاب حيوانات تقول القصص والحكم والمواعظ، الحيوانات التي أعالجها وأتحمل منظر برازها وروائحها وعضاضها تنشد المواعظ والأشعار في هذا الكتاب. لدي مع هذا الكتاب آلاف القصص والذكريات، قلت لحكم ذلك، استلم مني الكتاب ووضعه تحته ثم مسح على عينيه كأنه يعيرني بالعمى الذي يكفيه شر القراءة!.

«اسمي مكتوب في أول صفحة، امسحه أو اخلعها». قلت له ذلك وأدرت له ظهري ناوياً الخروج، وهنا تفتق فمه عن أول جملة بعد حادثة التمثال.

«ما اسمك؟».

«قلت لك بأنك تعرفني، اسمي أكثم».

«.....».

«أكثم، هذا اسم منجس وملعون، شاهدته مكتوباً في مرحاض



محطة العلاوي، بالقلم الرصاص، أكثم، سيدة حيزبونة أوصت رجلاً يؤمن بالسحر مثلها ما أن يكتبه هناك، لا أعرفها ولاتعرفني، مجرد تشابه أسماء لاحظته وأنا أتبول على جدار المرحاض، غسلت اسمي بيوريا دافئة معتقة لنهار كامل، وهذا هو المعنى الآخر في أن يتبول الإنسان على نفسه».

بدا حكم مستعداً للسماع، فزدت له فيضاً من الذكريات.

«كنت قد تسلمّت نتيجة القبول المركزي للكليات في ذلك اليوم. توقفت أحلام الطبيب البشري الشاب فجأة. سأعود إلى أبي مقبولاً بكلية الطب البيطري، وسأكذب على الزقاق بأكمله لعام كامل وأقول لهم إني مقبول في كلية الطب، أي طب؟، لا يهم، لن يتجسس على أوراقي أحد، ولن يتابعني أحدٌ إلى الجامعة، سحر السيدة التي لا أعرفها وقع عليّ وأرداني منحوساً في الحال، أرادت السيدة التي لا أعرفها أن تدنس اسم رجل لا أعرفه لتنتقم منه لذنب لا أعرفه، السيدة وصاحب الاسم المدنس يؤمنان بسحر المبولة هذا، أنا لا أؤمن، وهذا لا ينفعني أبداً، فأنا أرى دائماً أن ما يدبره المؤمنون بشيء ما تقع شروره على ظهور الذين لا يؤمنون به.

اللعنة التي أسخر منها ولا أصدق بها هي اللعنة التي تطاردني، فلا أهمية لعدم إيماني بها، ما دامت اللعنة نفسها تؤمن بي.الداخلون خلفي وقبلي إلى مراحيض المحطة، لن يأسفوا إذا دنسوا اسمي، قد يتوقفون قليلاً ويتخيلون الشخص الذي اسمه أكثم، أبيضاني طويل، حليق الشارب واللحية والإبطين، تفوح منه رائحة بولز، معطر الجسم الخاص بهذه النوعية من المستحثات الآدمية، قميصه أبيض مقلّم، حذاء قبقلي



يدمع لا يلمع، تسريحة تميل مع الهواء كل الميل، هنالك طية سائبة من البنطلون لا وقت لاصلاحها. مؤسف أنهم سيتخيلون أكثم بهذه الصورة النمطية البائسة، ومؤسف أنهم يظلموننا بهذا القالب الشخصي المسطح.

ومؤسف بأن كل ما تخيلوه هو صحيح مئة في المئة».

كان يسرح في عالم الأحلام من جديد. اشفقت عليه من قصتي والضرب الذي تحمله من الجنود. ذنب حكم حتى الآن هو صناعته للتمثال مع فتحة واسعة أكثر من اللازم. فتحة جعلت الدخول إلى جوف الرئيس سهلا جداً بالنسبة لكلب.



(٣)

هذا الصوت الذي لا تسمعونه هو للجاموسة المسماة قاصة. سموها قاصة لأن ضرعها خزينة لم تنقطع عن اللبن في شبابها. ترغي تحت ثور أصهب عنقه ضخمة تشبه أعناق الثيران في مصورات المناطحة الاسبانية. أعز ما تمتلكه هذه الجاموسة هو الصوت خلال التخصيب. فهي كحيوانة مستسلمة لرغباتها تؤمن بأن الصوت هو نصف اللذة، ولعلها تؤمن أيضاً أنها لاتمارس الجنس إنما تقوله بصوتها. لا أحد على هذه الأرض مارس الجنس فعلاً، كلنا سمعنا به أو نقوله. نرويه أو ننقله بالحكايات والأحاديث المختصرة للآخرين. لأن الجنس حسب فلسفة الجواميس التي أثق بها هو عملية الوصول إلى عدم الوصول أبداً.

هو شيء تبدأ به كي لا تنتهي منه.

ولولا فلسفة الجواميس هذه لما ولدت أنا ولا جميل يحترمني الذي اشترى البارحة مسجلاً صغيراً ليتمكن من تسجيل رسائل صوتية لأخته في عمّان. استطاع ضبط أصوات قاصة والتجريب برسائلها المتعالية إلى العالم من حولها وهي تتقلب تحت الثور. جمع حوارات قاصة في أكثر من ندوة وحلقة نقاشية مع بني جنسها الذكور. تدرب جيداً على التسجيل بالجهاز وجرّب أفضل طرق المناشدة واستجداء المال من أخته بطريقة غاية في التهذيب وادعاء التعفف والقناعة.



جميل يبحث عن طريقة للهرب. إنه يجرب ويجرب ويجرب منذ أول يوم عرفته، يقرض الحيطان وينبش الأرض بحثاً عن منفذ للخروج إلى الخارج مثل جرذ محبوس. وكلما وجد فتحة صغيرة يشع منها ضوء الخارج قضمها ووسعها وخرج منها ليجد نفسه في الداخل، فكل محاولاته للدخول إلى الخارج تنهتي بالخروج إلى الداخل!.

صباح الخير، صبّحت عليه وهو راقد في فراشه مقرباً المسجل من أذنه، ذكّرته بما عليه من مهام في ذلك اليوم. لقد أحدث الجنود مجزرة هائلة من آثار البساطيل في المبنى وعليه تنظيف ذلك كله، وإذا فرغ منه سنفكر معاً بطريقة للتخلص من حكم واسكات الجاموسة الشبقة.

دخلت الحمام لآخر مرة في ذلك الأسبوع. استخدمت صابونة رقّي نصف مأكولة، وسكبت على صدري طاستين من الماء، وخللت أصابع قدمي وما خلف أذني، أذكر هذه التفاصيل لأني أظن بأنها مهمة للباحثين والخبراء والمؤلفين والصحفيين!، حينما انقطع الماء صرخت على جميل. جميل يحترمني يستخدم الصنبور الرئيسي عادة لغسل يديه بعد تنظيفه الأرضيات من الروث ومخلفات الحمير. كررت الصياح والاستنجاد لكن لبثت نحو ربع ساعة من دون إجابة.

كفٌ سوداء امتدت وفتحت الباب. تحمل طاسة صغيرة يفيض منها الماء، اخذت منها الطاسة ورميتها واستسلمت للخوف مرة أخرى. ما زالت اليد ممدودة، كانت بيضاء في باطنها وظاهرها فاحم السواد. هنالك وشم يمتد من أعلاها، خط طويل يتفرع مثل نهر عجوز، أصابعها متشققة وأظافرها مقلمة بعناية، ومازالت تمتد من خلف الباب



مفتوحة وفارغة كأنها تنتظر شيئاً ما. ارجعت الطاسة للكف السوداء فانسحبت واغلقت الباب خلفها.

بقيت على ذلك الحال ساعة كاملة، هدوء قاتل وانتظار يمثل بالمقتول ويشرح جثته.

صرخت على جميل يحترمني مرة أخرى. صحت على كل الحيوانات المريضة التي سَمّيْتُها من دون جدوى. الاسم الذي تحاشيت استخدامه هو اسم حكم. كنت أظن في دخيلة نفسي بأنه مصدر كل ما يحدث.

شيدت هذه المستشفى في أواخر الثمانينيات على أنقاض قرية تدعى مقبرة الحمير. جلبوا مهندساً من رومانيا أشرف على تصميمها وما زالت بعض مخططاته موجودة في أدراج غرفة المدير. اختارها على ضفاف نهر دجلة، في واحدة من التواءاته على سكّان الضفاف، ثم باشرت المستشفى اعمالها كملحق بكلية الطب البيطري.

في أواخر أيام الحرب تضرر المبنى كثيراً وفقد بعض أجزائه، ثم غادره الطلبة ونقلوا الحيوانات إلى الجامعة وحديقة الحيوان، وتحول إلى دائرة خاصة تدار من جهات عليا. وجهات عليا تعني عادة نفراً من الإنس اللامرئين الذين يديرون الجهات كلها هنا.

لذلك، ولأني أعرف أن المبنى خالٍ من الناس والموظفين ولايزوره مديره إلا مرة أو مرتين من كل شهر؛ توقفت عن الصياح، وجربت أن أنبح وأعوي أيضاً بلا جدوى.

بقيت على ذلك الحال جالساً القرفصاء في الحمام الضيق ساعات



طوالا. لا أرى سوى يدي وحبات العرق وآلاتي الجسمانية الدقيقة، وهذه أحياناً لا أراها. لأن كرشي المتهدل الصغير يخفيها ويظللها.

غنيت ولعبت بأنفي كثيراً. وحينما أتذكر الباب المقفول من الخارج تسوء حالتي وأقرر الاحتفاظ بما عندي من الطاقة. تبولت وتنشقت اليوريا وابتلعت الماء وأنا أغلق أنفي.

اليد السوداء تفتح الباب مرة أخرى. تترك لي بطانية نسر القوة الجوية وتغادر. اغطي جسمي لأني ظننتها مقدمة للخروج. ويطول موعد الخروج، ويمضي وقت جديد. استدعي إلى رأسي آلاف القصص ولا تحط على بالي سوى قصة واحدة عن الوقت. تظهر الذكريات كشجرة عنيدة والوقت هو المنشار الذي يطيح بها، وقبل أن تقع وتسرد نفسها وتستلم لي؛ ترمي بعض ثمارها المتعفنة.

بعد أن قذفتني ببعض أحوال أبي وأمي القاسية. جادت عليَّ بقصة قتلت بها الملل داخل الحمام المقفل. لقد صحوت ذات ليلة وأنا أطلب من أبي الذهاب إلى خياطة الوقت، هكذا مكتوب على يافطة خياط السوق. وهو عجوز يضع قبعة فيصلية على رأسه وحزام قماشي مقلم ولا أراه إلا منحنياً على ماكنته، يتدلى منها نصف ساق رجل، بنطلون نصف مكتمل وهو يعالج المسافة بين الساقين. ضحك مني أبي وقص القصة على الجميع. أبي مصدر فضائحي الطفولية، المصدر الذي يضيف ويحذف ويعدل حسب حاجته. قال لهم إن ابني امسك بنطلونه ذات يوم وقال لي هيا بنا نفتح بنطلون الوقت، نطوله قليلاً لأنني كبرت. ولدي أكثم يرى الوقت مثل طية البنطلون يمكن فتحها وضمّها حسب



الحاجة، وعليه هنا أن يختم بلازمته التي لا تفارق لسانه: إيه..زمن مزمن!.

أصوات دربكة ولغة غير مفهومة خارج الحمام. هذا يؤنسني حقاً. كل شيء يؤنسني في الحمام. ركزت بعيني على مقبض الباب وترقبت حركته بلا أمل، كان النور الداخل من فتحة الشباك الصغير العالي ينحسر تدريجياً، مرت الليلة كاملة ومر اليوم الذي بعدها، مع ذكريات متعفنة تسقط على يافوخي وتتدحرج على الأرض ولا تقع في البالوعة.

رفسة قوية تفتح الباب كلياً في صباح اليوم الثالث، والكف السوداء تنكشف وتستطيل، يظهر شاخص ضخم مع خوذة عسكرية، كان أضخم من باب الحمام أو يبدو كذلك. رفعني وسند ظهري بيده وأخرجني.

وجدت نفسي في غرفتي من جديد. خاكي بال على فراشي وجميل يحترمني غير موجود. لا أحد موجود في الواقع. لكنني حينما استعيد عافيتي وأغط في نومة عميقة وتدهن اليد السوداء بلعومي بسائل أصفر مع زبدة وزيتون، سألاحظ المكان وموجوداته بشكل أفضل.

«هل تحبها..هذه زبدة؟».

قالت لي الكف السوداء واجبتها «نعم نحن نحب الزبدة، نحبها ونستخدمها في الكلام ونقول أين الزبدة، إذا أردنا معرفة المغزى والخلاصة».

لا يبدو أن اليد السوداء تسمع ما أقوله بوضوح لأنها تستجيب بعد برهة من الزمن وتضحك.

دخل خاكي إلى الغرفة ثم إلى حجري. تكرر هذا المشهد مراراً



خلال تلك الساعات وأنا أحاول استعادة وعيي وشحن معدتي بالزبدة والماء والخبز. اليد السوداء تقشر لي الأكياس. تخرج منها سوائل وموائع وأشياء أخرى يظهر بأنها معدة للأكل. لقد فهمت بأني دخلت الحمام وخرجت منه إلى عالم آخر. هو عالمنا نفسه، المبنى نفسه والغرفة والموجودات لكن شيئاً ما تغير إلى الأبد.

شغل أحدهم التلفاز واختفى. تركني أتابع صورة التشويش الصاخبة وتلك المربعات السود والبيض وهي تتلامض على وجهي. عادت اليد السوداء المتصلة بجثة ضخمة يبدو بأنها لجندي أجنبي. لعبتْ قليلاً في عتلات الشاشة الصغيرة وخرجت. ظهرت نشرة أخبار، صورة ثابتة يرافقها صوت مذيعة، يشبه صوت الربوت الذي لديه عددٌ محدودٌ من الكلمات يلفظها بطريقة واحدة وبنبرة الصوت نفسها كل مرة.

وأنا أرى تمثال الرئيس يسقط مسحوباً بحبل في الشاشة؛ تحسستُ المكان حولي، الجندي الملون وخاكي وجميل يحترمني، يحدقون مثلي في الشاشة وتنعكس صورة التمثال المجرور على وجوههم.

خاكي لم يقاوم رأس التمثال يقع ويتصدع ويُضرب بالقنادر. ظل يخرج ويدخل إلى الغرفة. لا أظنه فعل ذلك خوفاً من رؤيته للناس يبهدلون سجنه القديم. ولا تضطرب أحواله وهو يرى بطناً آوته من البرد والحر تسقط وتتهاوى. إنما يفعل ذلك لأنه يرى أمه بعد طول فراق. يعاتبها بتوبيخها والفرار منها.

ظل يداوم على الهرب حينما يرى تمثال الرئيس في ساحة الفردوس يسقط. يختبئ أحياناً كأنه يفر من صورة مرعبة. كلبي الذي أصبح كلباً



قوياً يافعاً يرتعب من ذلك المشهد حتى بعد أن صار مشهداً قديماً مضى على حدوثه شهرٌ كامل.

أما جميل يحترمني، فأول شيء فعله بعد دخول الأميركان إلى بغداد هو ارتداؤه لبدلة راقصة غجرية. كرشه ونقره بالسكين على طريقة الراقصات الغجريات في الحانات. وهذا نذر كان عليه الوفاء به.



(٤)

هذه عدة أشياء حدثت في ذلك الأسبوع. سجلتها في مفكرتي حسب تسلسلها التأريخي. كنا ننتظر أن نفهم ماذا يجري في الخارج من الجندي والتلفاز والحيوانات. الحيوانات تستجيب للملل أكثر منا. تفعل شيئاً يجعل الانسان يظن أنها تفهم أكثر منه، فيستجيب لها في ساعات تخليه عن عقله من السأم أو الخوف. فيعتبر النباح والصياح والنقيق تنبؤات. ومن يعش ملازماً لجميل يحترمني وضجيج البهائم عليه اعتبار كل دقيقة قادمة كارثة متوقعة.

أول ما سجلته هو الاجتماع الصباحي مع الجندي في غرفتي. أفهَمنا بأنه ينتظر مترجمه الذي سيصل بعد اسبوع. المنطقة مطوقة بخمس نقاط من مجاميع المارينز ومُؤمّنة تماماً. ستتحول المستشفى إلى ورشة عمل كبيرة لتأهيل نهر دجلة. ستنقل الحيوانات من هنا إلى هناك. أشار بيده من دون أن يوضح أين ذلك الهناك. وهل الهناك مناسبة لجميل يحترمني ليفرش ابتسامة عريضة على وجهه. ولماذا يظن بأن كلمة حيوانات تشمله أيضاً. سألنا بعد ذلك عن ما نود فعله إذا خرجنا. بماذا ستنفعنا هذه الظروف الجديدة.

«الخروج إلى الخارج، أنا هنا منذ خمسين سنة فتخيل ذلك يا مستر بلاك. أريد أن تنفتح علبة الطرشي هذه وأهرب بعيداً، جربت كل شيء



في التسعينيات، زورت استقالة مقبولة من المستشفى مع عقد للعمل في اليمن ولكنهم قبضوا عليَّ في الحدود، لم تكن الاستقالات لأمثالنا مسموحة، خصوصاً لمن يعملون في دوائر خاصة. لقد جعت وجوعت زوجتي معي. كنا نجمع نوى التمر ونبيعه لأهل الأعلاف والجواميس. نكومه ونكدسه مثل تلال عالية، هل جربت يا مستر بلاك أن تضاجع حبيبتك فوق تل من النوى. حينما تفتحون البوابة سأجمع أغراضي وأخذ مسجلتي وأهرب، أول شيء سأفعله هو مراجعة شارع السفارات.».

ترجمت حسب مقدرتي ما يقوله جميل للجندي الذي يسميه مستر بلاك. وإذا دخل خاكي وظل يطوف بين أرجل المجتمعين وشاكسه جميل كنت أتوقف عن الترجمة، يقول للكلب محاولاً أن يفضح قصته أمام الجندي: شنو دخلك هناك؟ ما لقيت غير راس الريّس تدخل فيه؟، حظك مثل حظي يا خايب، لا أنت أحسن، أحسن وأحسنين، حصلتلك دماغ تلم لحمك به، أنا باقي مثل أم البزازين كل يوم براس.

لا ينتبه الجندي إلى ما يقوله. أضغط بقدمي على إبهام رجل جميل ليكف عن استجواب الكلب لكنه لا يتوقف. ونلاحظ جميعنا اختلال جسم خاكي وعدم توازنه.

في الأيام التالية سيصبح عاجزاً عن رفع عنقه. يستعيد أعراض ليلة خروجه من التمثال. بعض الأعراض تسافر وتتمتع باجازة عن أوطانها لتعود في لحظة تختارها بدقة. هذا الكلب مذعن تماماً لآلامه. كنت أسقط على رأسه كل يوم قطرات من الماء أو اللبن البارد لأتحقق من حياته. يفزّ ويرفع رأسه ويحاول أن ينفش فروته مثل الكلاب المتعافية ويكرر ذلك ببطء. فأشفق عليه وأدني منه كسرة خبز أو حبة طماطم. نعم، كدكتور بيطري ناجح ستسمع عني أكثر من ذلك!.



رفعته وقربته من صدري. ووجدت نفسي أحمله إلى مكان مفتوح على السماء. أصبحت الدجاجات والبطات الوحشية تقترب منه. تمر من أمامه من دون وجل. ثم تدوس على رأسه وتنقر أنفه؛ وهو راقد لا يتحرك.

«دكتور ليش ذيل الكلب ما ينعدل؟»، يسألني جميل أمام المستر بلاك كما يسميه.

«لأن العدالة مائلة»، أجيبه فيتلعثم ويرمي بطانية ثقيلة على جسده ويغط في سكتته البلهاء المعتادة.

لولا الشعر البارز من منخريه لصار جميل يحترمني أحد الوجوه التي يطيب لي النظر إليها. أنا لئيم جداً فيما يخص ملامح البشر، وهذه من الخصال التي أكرهها في نفسي. لو كان جميل شيئاً واحدا لكان أنفاً كبيراً.

يخرج جميل ويعود إلينا وهو يقول: «دكتور ليش ذيل الكلب ما ينعدل؟».

«لأن شعار جمهورية الكلاب نباح حر ومساواة في القراد وذيل أعوج».

«دكتور ليش ذيل الكلب لا يترفع حينما يضاجع كلباً آخر».

لا أعير بالاً لأسئلته الكثيرة المكررة عادة مع أني أثق بخبثها، قبل أن أجيبه خرجت من غرفتي وتركت مستر بلاك يكتب شيئاً في مفكرته. بحثت عن خاكي وعرفت المقصود من سؤاله. خاكي ينوس ويعض أطرافه الأمامية تحت كلب شوارعي كبير قفز سياج المصلحة أو نفذ إلينا من شرخ في السياج.



كنت مؤمناً أن خاكي سيعلن لي بطريقة ما عن استجابته لعلاجي وتحسن إحساسه بجسده وتحريكه لأطرافه. لكنه أفرط اليوم في إقناعي بأنه قد تعافى تماماً. وجرّب أن يثبت لي ذلك بسماحه لكلب غريب أن يطأه. يركبه في حديقة المستشفى في عز الظهيرة.

خاكي ذكر يهوى الذكور.

مع مرور الوقت تأكدت أن موضوع خاكي ابن تمثال الرئيس؛ أعقد قليلاً مما أتصور. تكررت حادثة أن ينزو عليه ذكر آخر. تكررت كثيراً. خلف السياج وبعده. لقد تعافى خاكي تماماً وظل ينبح قبل المضاجعة وبعدها. يجوع ويحك رأسه بالحائط، ويمرغ رأسه بظهور الكلاب الضالة. ولكي أكون منصفاً فإن هذه الظواهر التي عاناها خاكي قد بدت بتدرج ملحوظ لم أتوصل لتفسيره. فقد كان أخونا بالوفاء والكبد الحار؛ يتمسّح بأقرانه من الكلاب وغير أقرانه، بالصغار أحياناً وبالكبار مراراً، كان يأنف من الإناث ولا يقاربهن، وكنت أترقب أن أسجل له نشاطاً يدل على تعافيه حينما أجمعه مع أنثى من خارج السياج أو داخله، لكنه لا يفعل!. يظل يحوم حولها وإذا غفلتُ عنه يتعذر بظهور شيء في الأفق ليلاحقه ويهرب إلى جحره.

سؤال جميل ما زال معلقاً حتى هذه اللحظة. ومن حسن ظني أنه لا ينتظر إجابات كي يسكت. هو يسأل فقط حتى يسكت وينام. النوم بالنسبة له حذف شامل لكل الأسئلة.

سجلت أيضاً اعترافي الأول للجندي الملون. قال لي وأنت ماذا ستفعل إذا خرجت من هنا.



«أؤسس طائفتي الخاصة من النحل. مزرعة فيها أكثر من مئة قفير من النحل. طوائف معدلة ومسالمة ومنتجة غير تقليدية للعسل».

في الساعات الموحشة التي أمضيها متيبساً من السأم في هذه المصلحة. أقلب أحوال حيواناتي وأحرص على تدليلها. أقرب حبة بلوط من عقرب. اسفنجة رطبة من خنزير. أضع الينسون الحار على رأس قرد يعاني من حكة مضنية. كنت أتجنب التخاطب مع خاكي، لا أتفحص جسده. أشعر بأنه قطعة ملغزة من الشحم واللحم. لم أعد أفهم هذا الحيوان. أهابه أكثر من أي انسان.

الإوزات الوحشية تتعارك منذ أسابيع. كنت وجميل نستمع إلى إذاعة قوات التحالف وهي تلقي بالنصائح والتعليمات إلى المواطنين، . نراقب ظل المستر بلاك يصغر ويكبر. ينتصب ويتقلص في الشبابيك وزجاج المستشفى. يطلب منا أن نغني معه فيعلمه جميل أغنية لا يطرب فيها ولا يحفظ سوى..ما عندي غيرك عيني..ما عندي غيرك.. والله ورسوله يا عيني..روح وقلب يهواك والله ورسوله.

وجدته في الغروب يغني دخلك يا طير الوروار، جميل يحترمني يبدو محترماً جداً وهو يترنم معه من بعيد. قلت لمستر بلاك هذه أغنية خطيرة تهدد طائفتي.

هرام هل تقصد بأنها هرام؟، قلت له لا أكثر من هرام، فطائر الوروار إرهابي، تيرورست كلش تيرورست...هو أعدى أعداء طائفتي.

تركته يبحر في العجب وأنا أهرول صوب حظيرة الإوز، لم أخبره أن الوروار يأكل النحل ويفتك بالمناحل.

فتحنا الباب على الإوزات وروبوت التحالف يحذر من استشراء



العنف في المدينة. وتستخدم عبارة ضبط النفس أكثر من مرة وتلفظ الطاء بطريقة مضحكة تذكرنا بالخواجات في المسلسلات المصرية. الإوزة الرمادية ذات العنق المشوب بحمرة تعرضت للاغتيال. تنام نومتها الأخيرة قرب طاسة الماء. وصويحباتها يمارسن أعمالهن اليومية بادعاء واضح لعدم اللامبالاة.

يقول جميل إن «مقتل الوزة» هو أول جريمة جنائية تحدث بعد سقوط بغداد، قالها مقلداً صوت المذيعة الروبوت.

داخلنا شعور من التشفي بهذه الإوزة سرعان ما كبحته وسيطرت عليه واستعدت روح الطبابة البيطرية التي أسترجعها بالنظر إلى أظافري القذرة عادة.

على مدار شهور البرد والظل والحرور كانت الإوزة المغفور لها تسيطر على الطاسة وتتدافع مع صويحباتها وتدهس الإوزات الصغيرات. صوتها يصلني وأنا في سريري المعدني العازل للضجيج. ومع مرور الوقت صار وجهها من كثرة الشؤم والقسوة مبعثاً للعذاب بالنسبة لي على الأقل، أما بالنسبة لصويحباتها فهي مصدر العذابات كلها.

يمكنني أن أميز الإوزة الجانية. الإوزة المساعدة لها. الإوزة المسهلة للأمور. الإوزة الساكتة عن الجريمة. الإوزة الجبانة المستريحة باختفاء الإوزة المتسلطة من عالمها من دون أن تحرك ساكناً. يمكنني تمييز كل أطراف القضية بنظرة طويلة واحدة ألقيها على حظيرة الإوز العظيمة.

رفع جميل الإوزة وخلصها من الروث والقش وخرجنا معاً لدفنها في مقبرة صغيرة جهزناها للطيور. لا أعرف ما الذي يجعل جميل حزيناً



وهو يؤدي دوره هذا. حاولت مواساته ومنح الحيوان تقديراً خاصاً، قلت له سنسميها طيطة قبل أن ندفنه. ليش طيطة؟، يسألني جميل.

الطيطة هي طائر عنيد لا يقدّر النصائح في كتاب الفيلسوف الهندي كليلة ودمنة، إوزتنا كانت بغيظة ووقحة ومنحها هذا اللقب التراثي سيخفف من شعورنا بالذنب إزاء سكوتنا على تصرفاتها وأهمالنا للحظيرة وتركها تتمرد وتسترجل على الأخريات.

جميل يظن دائماً أن الحيوانات خطية، مساكين، لايجوز تعذيبهم ولا ضربهم. ولعل تكراره لجمل مثل هذه وتظاهره بالرحمة والعدالة هو سر وجوده الخالد والمنافق هنا. لذلك، حينما قصصت عليه شيئاً من كليلة ودمنة استغفر لابن المقفع لأنه كان يلعب بمخلوقات الله وهو يترجم الكتاب الهندي ويحمّلها ما لا طاقة لها به.

في التل البعيد المحاذي للنهر يخرج مستر بلاك من برج المراقبة. ينفك عن رفاقه وينزل.

«يشوفنا مثل ما نشوف القراد»، قال جميل.

الحقيقة أنه كان يرانا كائنات داكنة يخفت سوادها إذا توقفت عن الحركة. منظاره البصير يصنفنا حسب تماثلنا للطاقة، والموجودات في بؤبئه نوعان، متحرك وجامد، شرحت هذا لجميل، فأعجبه الاسمان.

«اسمك من اليوم دكتور جامد»، يضحك جميل ويردم قبراً مثالياً لحمار صنعناه للتسلية.

الجندي الذي يشبه الخنفسانة بالنسبة لنا ونشبه القراد بالنسبة له يبلغ نهاية التل، يدخل في الشمس الموشكة على الغروب ويخرج منها وينحدر أسفل التل، يختفي بين النخيل ثم يظهر في الأفق متجها صوب



سياج الأسلاك الذي يطوّق الحدائق والإسطبلات وزنازين الحيوانات، توجهنا نحوه ونحن نتفحص ثيابنا، نبحث عن نقطة حمراء من تلك التي تظهر عادة على قمصان الناس في الشوارع والأفلام حينما يواجهون هذا النوع من الجنود الممسك بقنّاصه، النازلين من التلال، الخارجين من أفلام هوليود.

اقتربنا باتجاهه أكثر. وقف هو على السياج ووجهه الحقيقي يختفي خلف قناع الرأس والخوذة العسكريين وباقي تفاصيله الترابية اللون.

قبل أن يسأل سألناه بطريقتنا لماذا يبالغ بتغطية أذنيه رغم أن درجة الحرارة غير مؤذية.

أشار لنا أنه يكره هذا الطنين.

«يا طنين ولك، وين أكو طنين»، جميل يتعجب.

فتح ذراعيه وحرك بهما الهواء، وأكمل:

«أسمع الطنين بكل مكان، اسمع صوتاً يشبه صفارة الإنذار منذ هبوطي على أرض العراق، كانت طيارة الفرقة المجوقلة تشبه ذبابة، الذبابة طارت ورجعت إلى مينائها سالمة، لكن الطنين بقي، بالنسبة لي كان ضمن أعراض الهبوط من تلك البارجة الجوية التي نقلتني إلى بغداد، أنا الآن أظن غير ذلك، وبما أن الطنين ما زال مستمراً، دعوني أجزم وبضرس قاطع؛ أن هنالك صفارة إنذار قديمة متروكة منذ عقود بينكم، لقد تأكدت من هذا الشيء بالممارسة وكثرة التنقل داخل الحدود وخارجها، أنتم تعيشون مع صفارة إنذار أبدية وعاطلة ينبغي للمرء أن يحمي نفسه منها بتغطية أذنيه بشكل جيد».

«لكننا لا نسمع طنيناً ولا أنيناً ولا صفيراً حتى يا مستر».



«أنتم لا تسمعون الطنين الأبدي لأنكم ولدتم معه، إذا أردتم عدم سماعه عليكم الخروج من هنا وستلاحظون الفرق والهدوء، أنتم لا تسمعون الصفارة لأنكم اعتدتم على صخبها. جرّبوا الخروج، خطوة واحدة فقط خارج هذه البلاد، ستسمعون ما يسمى بمكانٍ خالٍ من الطنين لأول مرة في حياتكم».

طلب جميل أن يستعمل ناظور الجندي، قرّبه من أنفه ليشمه أولاً، ثم ساعدته مع الجندي بوضعه موضعه الصحيح على عينيه.

«هل يمكنني رؤية الخارج من هنا؟»، اسأله أين يقع الخارج، وكيف ندخل إليه؟».



(٥)

الذي لاحظ من البداية ماجرى في ذلك اليوم هو العجوز حكم. لأنه ببساطة كان يقف محتضناً قضبان البوابة وينتظر إشارة من الجنود في تلة المراقبة. أما نحن. أنا وخاكي وجميل فقد كنا نطل على العالم من تحت خصية الحمار. نجلس في زريبة الحمير ونطبب حماراً مصاباً بالقراد.

ننبطح تحت الحمار ونجلك بطنه وتبدو خصيتاه مثل ثريا تتدلى من سماء رمادية بالنسبة لنا. سمعنا طرطشة كلام الجنود الأميركان. أوامر صاخبة وأصوات تعلو فوق العادة. غادرنا سماء الحمار وتركنا الثريا مضاءة بآلاف النطف الحميرية.

فتحنا الباب وركضنا باتجاه البوابة. حكم متشبث بزخارفها الحديدية والجنود يمسكون أجهزة النداء ويستعدون لفتح البوابة لنا.

«وين رايح جميل، تعال ساعدني ننزل حكم، الأمريكان ينتظرونه يوقف عدل ويفتحون الباب».

«أنا رايح أجيب مخدتي وفرشة أسناني وجنطتي».

انتبهت بأني سأخرج خالي الوفاض، وجهي المبتسم وقميصي الملوث بالقيء وبول الحمير وشعري الممشط بمخالب الغاق. انستني الفرحة رزم حقائبي فأشرت للجنود بأننا سنعود بعد قليل.



فتحت دواليبي وعبأت بحقيبتي كل ملابسي مع صدريتي الخضراء الخاصة بغرفة العمليات. في الحقيقة.. ملابسي.. كل ملابسي.. عبارة عن صدريات وجاكيتات خضر من النايلون، يساعدنا الأخضر على التنقل الصحي للعين من لون الدم إلى أي لون آخر، سأكتشف بعد سنوات بأن الملابس الخضر هي أفضل ما يجب لبسه في صالة العمليات الكبيرة التي نسكنها. حشرت كتبي تحت إبطي وتذكرت الرضوض والخدوش فشعرت بالألم. وجدت جميل ينتظرني عند البوابة محتضناً خاكي.

لم أفهم هذه الحركة إلا كمقدمة لاستيلائه على كلب مثلي الجنس ومريض بعدم التوازن العضلي والوفاء الدائمي.

ترجل نحونا سبعة جنود بينما بقي المستر بلاك بعيداً. طلبوا تفتيش حاجياتنا ففرشناها لهم وتركناهم يتفحصونها. أخذوا يفرغون الحقائب ويرتبون الحاجيات في صفوف. داروا عليها بالأجهزة الكاشفة للأسلحة والمتفجرات ثم بكلب قهوائي مدرب. سقط خاكي حال ظهور كلب التفتيش واستعاد بعضاً من حيويته. أشار لي أحد الجنود وطلب مني أن أتقدم. مثلت بين يديه ورفع رزمة كتبي وسألني عنها واحداً واحداً.

«هذا كتاب الحيوان للمؤلف الدميري. إنه كتاب عربي قديم عن صفات الحيوانات وأسمائها وفوائدها، ينفع في الطب العربي الشعبي وهناك جدول ببعض الطلاسم والرموز التي تحل المعضلات. وفيه أيضاً معلومات عن تفسير الأحلام ومعنى ظهور الحيوانات في المنامات، كل حيوان ومعناه في الحلم. وهذا كتاب النحل للمقريزي فيه كلام طويل ومفيد جداً عن النحل وأسراره، عاشت معي هذه الكتب منذ تخرجي وقضيت معها آلاف الليالي وأحفظ بعضها عن ظهر قلب وكتاب النحل هذا سينفعني كثيراً في موضوع تأسيس طائفتي الخاصة».



قلت ذلك وأنا أشير بوجهي نحو المستر بلاك عله يساعدني ويشرح لهم شيئاً عني. انتبهت أيضاً إلى كتاب كليلة ودمنة بين يدي حكم، ولعنت غباوتي في منح كتاب لرجل كفيف أو نصف كفيف. طلب مني الجندي شيئاً لم أفهمه أول الأمر، تقدم مستر بلاك وساعده في ايصال ما يريده مني. فهمت منهم أن الجندي يطلب مني كتابة رقية خاصة. يعاني من الاكتئاب، إحساس ثقيل باللاجدوى وانعدام الأمل. أرق وتعرق ليلي وهلوسات وثرثرة أثناء النوم. يمشي أحياناً في يومه ويغادر النقطة العسكرية. تسبب الأمر بمعاقبته وأمره مهدد بالفصل والعودة إلى وطنه. هذا هو الجانب المفرح من الموضوع، قال لي ذلك وهو يبتسم، رفاقه الجنود لكزوه بأعينهم فاستعاد مهابته ووقفته الجادة.

قلّبت في الكتاب قليلاً وأنا ألمح استعجالهم واحاطتهم لي. بدا مشهداً في غير محله. لذلك لفقت له رقية سريعة وكتبتها على كفه: لا بلا ليق فيق صنج بنج.

أمروني بعدها بجمع أغراضي، فعل جميل ذلك أسرع مني ولملم أمعاء حقيبته وأغلقها وو ضع حزامها على كتفه ثم خطونا باتجاه البوابة.

ظهرت الكتابة في كفه إضافة متصلة بالوشم الظاهر في رسغه من تحت ثيابه. همس أحد الجنود بأن هذا الوشم ينتهي عند مؤخرته. كانوا يهزؤون بي وأنا أمشي وأقترب من بوابة الخلاص الجديدة.

انفتحت البوابة وحكم معلق بأحدى الفردتين فمال معها وهو ينفتح. تأرجح وضحك مستمتعاً بلعبته تلك. وأظنه سيظل معلقاً هنا لا يدخل ولا يخرج. كنت أعوم في شوربة الاستنتاجات تلك وأتخيل أوضاعنا أنا



وجميل وخاكي وحكم. فجأة اندلقت شوربة الاستنتاجات وارتميت على وجهي وأنا أخطو خطوتي الأولى إلى العالم بعد سقوط الرئيس.

انقلبت الشوربة وساحت في المكان ثم غبت عن الوعي. أفقت بعدها وأنا أتجرع مرارة انضغاط جسدي تحت حوافر الخيول. في الواقع لم تكن الخيول وحدها هي التي طبعت آثار هروبها على جسدي. لقد مرت على ظهري أشكال متنوعة من آثار الأقدام. مخالب وأظلاف وكعوب وسلاميات قدمية لا حصر لها ولا عد. بعد ركود الغبار اكتشفت أن فتح البوابة حفز نزلاء المستشفى من الحيوانات المريضة للهرب، حالهم حالنا. كانوا أسرع منا وأكثر عنفاً في تطبيق الحرية.

ما لا أعرفه هو أن تفر الطيور والدجاجات مستخدمة أقدامها بدلاً من أجنحتها. لم أسأل أحداً كيف فتحت الأبواب والأقفال. انشغلت بانقلاب الأحوال واجتماع جميع الحيوانات على التحرر بطريقة مضادة لطبيعتها. حتى الخيول لم تكن تركض مثل الخيول. عنقي هو الجزء الوحيد الصالح للاستعمال. دورته يمنة ويسرة بحثاً عن كتبي وأغراضي ورفاقي. كنت أشبه غواصة ترفع ناظورها بين أمواج من الصخب والغبار والفوضى. تلا ذلك موجة آخرى من الزرافات والسلاحف والضفادع، لا أدري، خمنت ذلك لأن الأقدام كانت أخف وأبطأ.

أرخيت رأسي على الأرض وتظاهرت بالنوم وتركت الجنود يتقربون من البوابة ويطلقون الرصاص، أحدثوا جلبة جعلت بعض الحيوانات تعود وتكرر استعمال جسدي كمداس لين ومحبب. بعضها كان متردداً ويحوم حولي. بعضهم حاصره الرصاص فظل محبوساً في رقعة صغيرة يروح فيها ويجيء على أضلاعي.



يبدو أن الجنود تركوني بلا اهتمام. يشاهدون جسدي يتحول إلى اسفنجة تمتص اضطراب الحيوانات من دون أن يفعلوا شيئاً. ويظهر إن خوف الحيوانات منهم تسرب إلى نفوسهم. ليس عليك وأنت تخاف من أحد إلا تسريب خوفك إليه. تظاهر بالضعة والذلة والمسكنة حتى يفوح عفن الجبن من روحك ويسرطن روحه.

صحوت وأنا في غرفتي مقابلاً التلفاز. طببت نفسي بنفسي وقضيت الليلة استرق السمع لضحكات الجنود على الحادثة. لم أعرف شيئاً عن جميل وخاكي وحكم. أغلب الظن بأنهم نجحوا في الفرار. لأن الخروج مع هذه الفوضى لا يسمى إلا فراراً. كل خروج هو فرار بالنسبة لجميل حتى الخروج من الحمام.

«أنا خوّاف ووهواسي ورعديد، اتطير من حوادث كهذه، سأمكث هنا لاسبوع ثم أخرج. سأرتب وضعي وأقرأ لأباشر مهنة جديدة وأحضر شيئاً عن طائفتي، أنت تعرف من الأخبار بأن الوضع مازال مربكاً وأنا محسوب بشكل ما على ما يسمونهم أزلام النظام السابق، حتى لو لم أكن كذلك فأنا غير مستعد للذهاب وحيداً إلى البيت».

لا يجيب الجندي الذي طلب استفساراً رسمياً عن سبب تقاعسي عن الخروج وتنفيذ الأوامر.

أضفت له «أنا من أزلام حيوانات النظام في الحقيقة وقد تقتص مني الحيوانات بطريقتها».

أطلق ضحكة داعرة طويلة واختفى.

لا ينتهي ما أردت قوله عن تلك المرحلة هنا. قضيت الأسبوع



والأسبوعين والثلاثة. أتشجع للفرار وأغني واستحم مع الجنود في دجلة واتركهم يتضاحكون على لباسي الداخلي الواسع الأبيض.

نمت ذات نهار وحلمت بأني أعصر ثديي لكركدن صغير. يلعق حلمتي المشعرة ويقضمها بفكه الفتي. استيقظت متعرقاً وأنا استرجع معنى ظهور الكركدن في المنام كما يرويه الدميري في كتابه. حرب ومكر وخديعة وبؤس قادم.

غمست رأسي بالوسادة مرة أخرى. شعرت بشيء يتصلب تحتها، وقبل أن أمدّ يدي لأعرف ما هو، تذكرت أني وضعت قلماً عندما عدت من النهر مع الجنود في فراشي، هو واحد من مئات الأقلام لاحظناها تطفو على نهر دجلة في تلك الظهيرة. ما زال رطباً وحبر رأسه أكلته الطحالب والأسماك، التقطته من بين كومة من الأقلام والدغل الممزوج برغوة الشط. مسحته وعلّقته في جيب القميص ونفخت صدري وأنا أتذكر أبي. يرآني وهو يصبغ جزمته يقول لي إنّ حبس الهواء في الصدر مضر لمؤخرتي، «إذا أردت أن تصبح رجلاً فلا تتباهَ برأس قلمك، أرجع ظهرك إلى الوراء حينما تصعد في الباصات العمومية وادفع الأجرة كشخص بالغ يا زوج الخثية».

بعد سنوات وخلال وجودي هنا عرفت من الفلاحين والحمالين والسوقة بأن الخثية هي الخنزير البري الأسود، وكل ذلك بالنسبة لأبي يعني الشخص عديم الغيرة والمسؤولية. فأبي أيضاً مثل الجاحظ والدميري والمقريزي يملك معجمه الخاص من تفاسير الحيوانات وطرائق لاستعمالها في حياتنا!.

أنا هادئ الآن أليس كذلك!. لقد رويت لكم كل شيء تقريباً، كل



التفاصيل المهمة ولم أغفل عمّا هو مفصلي وحساس، قولوا لي إذن لماذا دخل الجنود إلى غرفتي بعد يومين من حلم الكركدن وقرصوا أذني وفركوهما بحرقة.

سحبوني إلى صالة العمليات التي حولوها إلى مطبخ لهم. ثبتوا فيها خطافاً يتدلى من السقف فوق المروحة السقفية التي بطحوها أرضاً. ثم رفعوني، يد تقبض على رقبتي ويد تحت مؤخرتي، ثم قلبوني وثبتوا رجليّ بسلكٍ غليظ. علقوني. خفت من اصطدام رأسي بريشات المروحة المستريحة في الأرض. شَدوني منكوساً وغابوا.

عادوا ولكموني على فمي، ثم غابوا، عادوا ولكموني وغابوا. رفسات وصفعات وبصقات ونقرات مموسقة من المطرقة على عظمة ساقي. كانت بينهم مجندة تركت شدة من زهور عبّاد الشمس بأسنانها على زندي. صارت تتباهى وتجلب زميلاتها كل ساعة أو ساعتين، تقول لهن انظرن إلى هذه الوردة التي زرعتها هنا. هيا لنسقيها. فتعضني المجندات الأمريكيات واحدة تلو الأخرى.

أما مستر بلاك فقد كان يعود كل ساعتين مع ملاعق ملتهبة مثل حمم البراكين ليلسع بها كرشة ساقي. أما مؤخرتي فقد نالت ما تستحقه مؤخرة فيل ضرّاط من شتائم بذيئة.

لا أعرف متى توقفوا عن فعل ذلك بالضبط. غير أني سمعتهم يتلون علي ما يشبه البيان بالعربية برفقة مترجمهم الجديد. يقول البيان بأني مسؤول عن تهريب عشرات الحيوانات.

طيب وكيف عرفوا ذلك؟، وأنا بينهم أذوب من الخوف والغباوة. قالوا لي إن هياكل الحيوانات بعد قتلها ودفنها استعملت في أعمال



للشعوذة في العراق. لقد وجدوا عظام الحيوانات، سيقانها وأعمدتها الفقرية وجماجمها موزعة خلف التماثيل والنصب وعلى ضفاف الأنهار. إنهم يؤمنون تماماً أن من تدبر مؤامرة الهروب الجماعي للحيوانات كان متعاوناً مع جماعة فلكيين ودجالين ومشعوذين مهتمة بأعمال السحر تلك.

فضلاً عن إن هذه الأعمال تعد جريمة منافية لحقوق الحيوان.



(٦)

أنا لا علاقة لي بما جرى. أنا عشيرة من البشر اسمها الذين لا علاقة لهم. تقع عليهم آلاف الأسئلة وتهرسهم. تدهسهم وتفرم عظامهم، ولديهم جواب واحد قديم هو لا علاقة لنا. اقلبني وانزع ملابسي واكشط جلدي ستجد تحته عبارة لا علاقة له محفورة ألف مرة. انتصرتم أو انهزمتم. حزنتم أو فرحتم. نمتم أو استقيظتم. أنا لا علاقة لي أو لا علاقة لي.

أنا معالج بيطري للحواوين والعتاوي والقرود والمطايا والبزازين.

أعمل هنا منذ تخرجي. خط سيري معروف. مستقيم مائل الحظ والبخت من البيت إلى المستشفى. أعيش وحدي، لماذا أعيش وحدي؟ لأني وحدي. كنت وحيد أمي وأبي. أنا اليوم وحيد نفسي. أنتم تدمغون رأسي. تضربونني على صدغي. تعصرون يافوخي. أنا مريض، عندي مشكلة قديمة في دماغي، هذه تقارير الطبيب راجي سركوت أشهر أطباء بغداد في الثمانينيات تثبت ذلك. انزلوني وسأساعدكم. سأجمع الحيوانات واحداً واحداً من الدرابين والأزقة والساحات. سأجمع لكم عظامها وأشيد لها مقبرة تليق بها. سأرفق بالأحياء وأكرم الأموات بالدفن.

لم أكن وحدي في غرفة التشريح التي تحولت إلى محجر تعذيب.



كانوا يستضيفون فيها كل أسبوع نزيلاً جديداً. كل يوم جمعة أسمع سيناريو تهريب الحيوانات بطريقة مختلفة. على عيني عصابة من النايلون تجعل الرؤية مثل رؤية الغريق. الناس حولي يتماوجون وتتراقص صورهم وتزدحم.

هذا نزيل متهم بزرع ترقوة بغل تحت تمثال تسواهن في مدينة ميسان في الجنوب. وهذه نزيلة متهمة بغرس أضلاع الكلاب تحت تمثال الحوتة في البصرة. أما الحصة الأكبر من النزلاء فقد كانت لمجموعة عتالين تناوبوا على دفن أعمدة فقرية للخيول تحت نصب الحرية ببغداد.

أكثر ساعاتي في غرفة التشريح أمضيها مستنداً بكوعي على الأرض أتلقى أصوات القصص ونشيج النزلاء ورعبهم. لم يكونوا سحرة بالمعنى الواضح للكلمة، أشكالهم عادية ويظهرون كموظفين ومتعلمين، أدباء ومحامين وأطباء ومهندسينن ونحاتين ورسامين ومسرحيين ومطربين. هناك نسبة طبعاً أقل من الثلث تشمل حمالين وسائقي أجرة وباعة جوالين.

أعاونهم على تكرار القصص والاعترافات وبعضهم يصدق دوري ويعاملني كما يعامل المحققين الأميركان. يردّ علي بالانجليزية وأحياناً يبتكرون لغة طلسمية ويذوبون في أدوارهم كمشعوذين. بالنسبة لي كان الأمر قطعة من الحلم. شذرة من مناماتي الكابوسية. لا أصدق ولا أريد أن أصدق تلك الأيام حتى هذه اللحظة.

بعد أن تحررت من يد الجنود وقعت مرة بيد النزلاء. سمعت بعضهم وهو يهذي في منامه عن رؤيته لنفسه في المرآة. وقف متأملاً وجهه ويدعك لحيته. تقرّب من وجهه في المرآة وبدأ يحلق ذقنه، وبينما



كان يلوي فمه ويفتحه لاحظ شيئاً داخله. فغر فمه وتقرب أكثر من المرآة. لمح ذيلاً أبيض طويلاً في جوفه. يظهر ويختفي، مد يده وشعر بحاجة للتقيؤ. ظل يصيح ويستغيث وينادي ذلك الحيوان الذي بداخله، يصرخ عليه مرعوباً كي يخرج. بعد ذلك صار يصرخ عليه كي يدخل ويلبث في جوفه. أخبرت النزيل أن هذا يعني سوء الفهم.

«أنا قليل الفهم والدراية لأني لم أدس رجلي في مؤخرة جدك التاسع عشر من زمان».

«مؤكد أن ما يحركك هو سوء الفهم. أنت تبتلع المواقف من دون هضم جيد، لا تركز جيداً فيما حولك، تترك فمك مفتوحاً ومنبهراً ومندهشاً دائماً، فيدخل جرو سوء الفهم ويعبث بداخلك».

«وكيف تدري بأن الذيل في فمي هو ذيل جرو لماذا لا تكون قطة».

«القطط فضولية ومولعة باستكشاف المجهول، فمك عديم الأسنان تقريباً، وكل شيء مشرع ومكشوف من أول نظرة فلا شيء يجذب اهتمامها».

يبدو النزيل المتهم باستدراج سرب من مالك الحزين؛ مصغياً ومنتبهاً ومحفزاً للمزيد من تفسيراتي. «اسمع، القطط تتذكر أكثر من الكلاب بمعدل ٢٠٠ مرة، القطط كائنات تعشق الذكرى بامتياز، اذا حلمت بقطة فأنت تعيس الحظ، لإن ذلك يعني أنك مصاب بلعنة تذكر كل شيء، أنت قليل الصفح ولا تتسامح، حسب متابعتي لأحلامكم في هذه القاعة فأنتم تحلمون كثيراً بالقطط، بصراحة يا أخي بالع الجرو أكثر الناس حولنا هم كذلك، لا يطردون القطط التي في أجوافهم».

عندها انتبه واستعاد وقاره معي. نط على جسمي المضطجع



باسترخاء تام، وظل يركلني وينطحني برأسه. تدخل الحراس ورفعوه مني ثم أودعوه في غرفة لوحده، سميت فيما بعد باسمه: غرفة بالع الجرو. اقترح علي طبيب متهم بإيواء غزالة صغيرة أن أعمل معه في الإذاعة، هو يقدم برنامجاً صحياً وأنا أقدم برنامجاً لتفسير الأحلام. خمّن لي راتباً مناسباً يدفعه مالك الإذاعة المغترب والعائد من منفاه الهولندي. اخبرت الطبيب أن لدي مشروعي الخاص أيضاً في تأسيس طائفة خاصة من النحل قد أضم لها بعض الحيوانات، شكرته وحمدت فيه نبله وسلامة أخلاقه التي لمستها خلال معاشرتي له في تلك الفترة، لم اعتذر عن فكرة البرنامج كلياً لكنني لم أظهر له الحماسة الكافية واكتفيت بكتابة رقم تلفونه في مفكرتي.

بعد تخلصنا من بالع الجرو بالغت في السكوت. توقفت عن تفسير أحلام المتهمين. أقف ملصقاً أنفي على زجاجة الباب وأطالع الحراس. أحاول جذب اهتمامهم حتى يخرجونني من غرفة التشريح ويهزئون بي. أتخلص على الأقل من وجوه المتهمين وأبخرة أفواههم وشعورهم ومناظر أظافرهم وهي تستطيل وتمتلئ بالقيح والدماء المتيبسة. كنت محبوساً في إبط ينطبق على كائنات مهروسة بكوابيسها. وحينما بدا لهم بأني مقرب للأمريكان حدث ما لم أكن أحسب له حساباً.

جلبوا ورقة وقلم وسجلوا أسماءهم وطلبوا مني اعتماد جدول الأسماء هذا في تفسير الأحلام حسب التسلسل. كل يوم ثلاثة أحلام. أرتاح الأمريكان للخطة واعتبروها طريقة جيدة لتسريب اعترافات المتهمين والتصريح بأماكن اختفاء الحيوانات.

لا أنكر بأني أستفدت كثيراً من تلك الأحلام وسربت الكثير من



المعلومات للحراس. صرت أوثق وأدون الأحلام وأذيلها باستنتاجات تتملق الحراس وهيئة التحقيق. سمحوا لي بإدخال كتاب الدميري حياة الحيوان الكبرى. وجعلوني أتخذ جلسة في قلب المكان متربعاً مثل السلاطين. في آخر عشرة أيام من مدة الاحتجاز بدأ عدد المتهمين يتناقص. يتناقصون وأنا رابض في عرشي لا أغادر الغرفة.

ما زلت احتفظ بالجدول في درجي. لم يصل الدور إلى الجميع فبعضهم لم يكن يحلم. وتشتد غيرته من الحالمين ويغالطهم ويقاطعهم وهم يروون أحلامهم الحيوانية. لاحظتهم ينقسمون إلى جماعتين في الأغلب. جماعة تفند أحلام جماعة. يتدخلون بأحلام غيرهم، يفتحون أدمغتهم ويلبسون جزمة خاصة بغزوة الأحلام ويروونها بدلاً عنهم. كان هذا سلوكاً مرفوضاً، نبهتهم وأنبتهم مراراً حتى انصاعوا لأوامري والتزموا بالشروط. كل شخص يروي حلمه. كل واحد مسؤول عن حلمه. لا تسطوا على منامات الآخرين.

في الساعة الثالثة من فجر الثلاثاء، شهر شباط ٢٠٠٤ ميلادي، تلت علينا هيئة التحقيق بياناً. نصفنا نائم ونصفنا يدعك عينيه ويزيل غبار النعاس. ابتهجنا وتعالت الزغاريد والأدعية والصلوات. يقول البيان إن حزمة معلومات شبه متكاملة قد توفرت لارجاع الحيوانات وستحتفظ اللجنة ببعض المتهمين لأغراض تخليص تلك الحيوانات النادرة من عذاباتها.

لماذا لم يذكر البيان شيئاً عن موضوع الشعوذة وهياكل الحيوانات تحت النصب والتماثيل والجداريات؟ لا أدري، بالنسبة لي لم أكن أشعر بذلك الفاصل الدعائي بين الحلم واليقظة. بين ما نراه في المنام وما نراه في الواقع.



أوقفونا عند البوابة وبدؤوا بقراءة الأسماء. لا أحتاج إلا ذكاوة لأترقب أسمي من المستثنين الذين سيتواصلون مع هيئة التحقيق. انتظرت وقوع أسمي على رأسي مثل صخرة. فكان ما توقعت، أمروني بالوقوف جانباً وانتظرت أن يقف معي مستثنى جديد من الانعتاق. انتظرت من دون جدوى.

تسرح المتهمون ونقلوهم إلى الشارع العام على وجبات. قدموا لي مستنداً كبيراً يحتوي بيانات الاتصال بالأميركان وطرائق البحث عن الحيوانات. عبرت البوابة وصعدت سيارة النقل الخاصة، فتحت النافذة فأشار لي الجندي بالمنع، أعدت غلقها وألصقت أنفي على زجاجها وأطلقت زفيراً صاخباً كما لو كنت أتنفس لأول مرة.



(٧)

قذيفة هاون تسقط على حافلة تقل مدنيين. عشرون قتيلاً وخمسة جرحى. قد تكونون سمعتم بذلك الشريط الأخباري أو مرّ أمامكم مثل قطار. عبر من اليسار إلى اليمين سالماً في الشاشة. مثلما يحدث عادة. هنالك كراج خاص بقطارات الأشرطة الخبرية. تصطف فيه آلاف الأسماء والأرقام والكلمات العاجلة. كلها تصل سالمة إلى وجهتها. وتعود لتمارس مهنتها اليومية في إيصال الأسماء والأرقام. إنها الأشياء الوحيدة التي ترافقها السلامة في تلك الأيام.

نصف السيارة سقط في النهر. أنا في النصف الذي على الجسر، لم يكن نصفاً بالمعنى الرياضي. هو نصف لأن نصف المتهمين كانوا داخله.

يقولون إني كنت أمسك رأسي. حتى حينما وقعت وتدحرجت كنت أقبض على دماغي وأحميه بأطرافي. أتكور وأتقلب على الجرف مدافعاً عن رأسي...

أفقت على صوت أذان، ظهر أو عصر لا أتذكر. في غرفة كبيرة ليس فيها سوى سرير ومنضدة بجانبه. مع نافذة تطل منها نخلة وتتلصص علي بسعفتها. على المنضدة علبة معجون طماطم زجاجية فارغة.

أفقد الوعي واستيقظ ولا أرى غير السعفة والنافذة والعلبة الفارغة.



بعد تلك المرحلة بدأت أتحسس رائحة المعقمات والمعدات الطبية. آنسني ذلك، كل شيء بإمكانه أن يؤنسني. أنا غير متطلب ويمكن أن أعصر لكم كل أمنياتي وأحشرها في علبة ثقاب يستوعبها جيب البنطلون. أما حينما أصبت في ذلك الحادث فحجم علبة الثقاب تغير وتقلصت أمنياتي لتمر من ثقب الباب، تفر مني وتطير في أرجاء بغداد وتعود متفحمة ومكسوة بالغبار والسخام.

سمعت صوت أرجل كرسي تسحب على البلاطة. وصوت ملابس إنسان تتثنى وهو يجلس على الكرسي مقابلاً لي. سألني عن اسمي فقلت له أكثم رائد شهاب كلافة، كلافة أعدتها مرتين.

شجعني صوته على فتح عيني في الصباحات التالية. طلبت منه أول ما سنحت لي الفرصة أن يجعل النخلة تدخل من النافذة، فضحك علّي. قلت له أريدها أن تدخل كاملة ولا تكتفي بالتلويح لي بسعفتها. ضحك الصوت مرة أخرى.

شاهدت صاحب ذلك الصوت أول مرة وهو يستدير ويعبث قليلاً بالعلبة الفارغة. التفت نحوي فعرفته وتذكرته.

إنه الدكتور راجي سركوت طبيب طفولتي. كنت أراجعه وأنا طفل. لازمت عيادته مدة طويلة. أزوره كل أسبوع لأغراض العلاج الطبيعي، أقاوم كل الظروف السيئة خلال القصف في حرب الثمانينيات العراقية الإيرانية وأكون عنده حسب الموعد. عرفت منه أن جماعة من أصحابي اتصلوا به وأخبروه عن حالتي والحادث الأليم. فاستجاب لهم وقرر معالجتي في عيادته.



لم تحدث فوارق كبيرة في منظره. ظل طويل وجسد كمثري. بشرة وردية وشعر أبيض مصفف بعناية. قذالته موجة واحدة لا تنكسر كأنها خرسانة مسلحة بالحديد. حينما يقترب منك وهو يمارس عمله على جسدك يلوي بوزه باشمئزاز وإذا رفع وجهه عنك يستعيد ابتسامته الدائمة سريعاً.

قرّب العلبة الفارغة من النافذة وراح يحركها. كما لو كان يصطاد الضوء ويحبسه داخلها. عندها عرفت أن العلبة لم تكن فارغة.

يعود ويكرر ذلك كل يوم. يأخذ منها عينة ويتركها على المنضدة بجوار السرير. يدون شيئاً ويمضي بعد أن يسألني سؤالاً عادياً ينتمي إلى أسئلة أيام زمان. شلون أبوك. كيف أحوالك بالمدرسة. هل وصلتم إلى قصة السلحفاة البرية في درس القراءة الخلدونية. هو مولع بهذه القصص. في الواقع هو أول من أهداني كتاب كليلة ودمنة وجعلني أخاطب الحيوانات وأحاورها منذ صباي.

أما سؤال ماذا ستشتغل إذا تماثلت للشفاء فكان الجواب الذي أخرجته من علبة الثقاب، جاهزاً وقابلاً للاستخدام مرة واحدة. لأني أملك منه في علبة الثقاب آلاف النسخ.

«سأعمل على تأسيس طائفتي الخاصة»، تكاد العلبة أن تقع من سركوت قبل أن أكمل: «طائفة خاصة من الحيوانات..النحل تحديداً وقد أضيف لها كائنات أخرى».

يستمر في عمله من دون أن يترك الجواب يأخذه عن فورة أفكاره.



أظنه بالغ قليلاً في رج العلبة واللعب بها أمامي. يفعل ذلك ليحفزني على السؤال.

«ما ذلك الشيء في العلبة؟».

«بصاق».

«أستطيع أن ألاحظ بأنه بصاق. يبدو بصاقاً ثقيلاً. هل تنوي استعماله في نقاش ما؟!».

«لا، لأنه مستخدم. هو بصاقك. لقد أجرينا لك عملية تبديل بصاق».

عملية نادرة لنقل بصاق الآخرين. حدث تلوث في جهازي الهضمي. يفترض بي أن أكون منخور الجسد تحت التراب الآن لولا جرأة سركوت وخبرته ومتابعته لأخبار الطب ورحلاته الكثيرة إلى الخارج. هذا طبعاً ما كان ينوي قوله لي بعد ذلك. تكلم كأنه يحاول إقناعي ولجم حالتي العصبية وغضبتي التي بعثرتها أمامه.

حاولت أن استجمع ماء فمي كله. شعر بي أعصر جوفي فابتعد عني. ركضت نحو الباب. طاقة تقيؤ كبيرة تعصف داخلي. وجدت نفسي أمام متاهة سلالم. سلالم الطفولة نفسها. كنت أتباهى بصعودها ونزولها درجتين درجتين. لم أعبأ بالمرضى والعجائز. عبرتهم كلهم باحثاً عن مخرج مناسب أضع فيه ماء فمي.

أمام مدخل البناية أقعيت وثبتُّ يدي على الأرض غير مهتم بالمارّة. لا أسمع سوى صوتي وأنا أصب ماء جسمي على الإسفلت.

انتبهت لنفسي وأنا مطوق بالغرباء. ساعدوني على الوقوف وأخذوا بيدي نحو سركوت الذي كان واقفاً يتابع المشهد من الرصيف.



عدت إلى السرير. جالت في خاطري أيام مداومتي في عيادة سركوت كطفل صغير أمضى سنوات طفولته معصوب الرأس. يحضر هنا كل أسبوع ليتلقى علاجاً خاصاً. مررت بصري على تفاصيل الغرفة التي كان فيها مكتب سركوت قبل توسعته للعيادة واستثماره للطابق كله. هذه الغرفة الفارغة تقريباً كانت محل ذكرياته معي. يتركني أجلس على كرسيه وينتقل هو إلى كرسي المريض وينادي على المريض التالي، يقول له:

«إنّنا جميعاً نملك دمبلة في مكان ما، مشكلتك أنت أنك تعرف مكانها، لا تحاول تذكر مكان الدمبلة كي لاتفسد عليك حياتك»، ثم يضربه على رقبته ويقصع ظهره مثلما يفعل المدلك في حمام السوق ويأمره بالخروج. وهو يضحك عليه ضحكة طويلة متصلة بضحكة أخرى من منظري وأنا أتثاءب.

على الجدار صورة لدماغ الإنسان بين شهاداته وأوسمته الرياضية. لأن سركوت كان طبيباً ومصارعاً. يبدو الدماغ مفصصاً ومفتوحاً. وفي النصف الثاني من الصورة الدماغ نفسه مفتوح مثلما تفتح لفة الحبل.

يقول لي هذه الدودة كلها في رأسك. وهو يشير إلى صورة الدماغ.

أتحسس رأسي وأعصره وأتخيل الدودة المرسومة في الصورة تحاول الخروج من أذني. كنت أظن في البداية أن في رأسي دودة، ولما كبرت عرفت أن هذه الدودة موجودة عند الجميع، لكنها في حالتي تحاول الهروب.

يعطيني ورقة الأدوية. أنزل السلم محاولاً تهجئة الكلمات. أصل إلى الصيدلاني وأدفع له الورقة من شباك الخشب. ينحني إلي ويتمعن فيّ



طويلاً. يهز رأسه متأسفاً. يعطيني ظهره ويظل يبحث في الرفوف. يلتفت نحوي ويكرر ملامح وجهه المتأسف نفسها. لكنه يقول لا حول ولا قوة إلا بالله. يسلمني الأدوية ويتلاشى رأسه في مربعات الشباك.

أعود إلى سركوت.

أجد بين يديه مريضاً جديداً. أجلس على كرسي الطبيب. أصوات غارة الحرب تملأ الفضاء. تضطرب العيادة. يتكور المريض في الأرضية. ثم ينهض مسرعاً ويرتدي نظّارته الشمسية ويعود إلى وضعه السابق. ينحني ويلتف على نفسه. يدخل إلى جسده.

تتوقف غارة الحرب. أتأخر لدى سركوت منتظراً أبي. أذهب إلى الحمام وأعود. أفتح الباب على سركوت وهو يعتلي طاولة مكتبه. عارياً إلا من فانيلته الداخلية، كان المبنى فارغاً بالشكل الكافي ليشعره بخلوة المجانين مع أنفسهم. قال لي تفضل، أدخل واقعد وافتح كيس العلاج.

سألته لماذا يرتدي ذلك المريض نظارته الشمسية عندما يسمع الغارة؟

قفز من مكتبه وترك كرشه يتدلى في عينيَّ أكثر من المعتاد. مدّ عنقه من زجاج النافذة، المطر الرمادي ينزل. قال لي ذلك كما لو كان يخاطب شخصاً أسفل البناية.

«لا يصح أن يسقط المطر الرمادي في تشرين. أما هذا المريض فهو يرتدي نظارته خوفاً على عينيه. هذا نوع من أنواع حماية الحواس. كلما يطيح صاروخ هذا يلبس نظارته الشمسية ويحصر نفسه بالزاوية، ومرات يستر روحه بين الدواليب. يخاف ينهض ويشوف الجثث.. لذلك يلبس



نظارة. لكن ما يدري بأن هو نفسه ممكن يصير جثة. والناس تعاين عليه بدون نظارة. لازم يوزع على الناس نظارات ها ها ها».

أحك لحيتي الوهمية كإشارة طفولية على المتابعة باهتمام.

يضحك سركوت. صوته وهو يضحك مثل صرير طاحونة.

كنت طفلاً.. و حتى انقضاء الحرب العراقية الإيرانية أعيش أجمل لحظاتي بصحبة سركوت. يتابع علاجي ويقلّب جسمي ويسألني عن أحوالي، وأسلمه دفتراً مخططاً من دفاتر الوصولات. هكذا اتفقنا. أساعده في تخطيط وصولات العيادة. وقبل أن أذهب طلبت منه أن أحصل على صورة للدودة في رأسي. رفعني إلى أعالي الرفوف في غرفته. نقبت بين أكوام الكتب والمجلات والمستندات فوق مكتبته العالية. أخرجنا عشرات النسخ من مجلة طبيبك العربية بحثاً عن مقال يتذكره وفيه رسمة للدماغ.

في صباح اليوم التالي كنت أعصر صورة الدماغ في جيبي. أسندها بورقة تحتها وورقة فوقها وأطويها. وأخرجها لكل من أعرفه في الشارع: «شوف هذه الدودة تعيش براسي».

وأنا أقرأ كلمة التلاميذ الأسبوعية في المدرسة. تسللت يدي إلى الجيب الذي فيه الدود. فتحتها وأنا أتداعى من الخجل، نظرت إلى دودتي وأرجعتها إلى محلها. أخرجت الكلمة التي كتبها لي أبي. قرأتها وأنا أتفكر في الدودة وهي تتبّع معي حروف الكتابة.

كانت تصحح لي وتأمرني بالوقوف وخفض الصوت ورفعه عند مواضع معينة، صفّقوا لي، رجعت إلى الطابور وأخبرت تلميذاً أمامي



بموضوع الدودة، أخرجتها له: «هذه هي الدودة التي تداوم معني في المدرسة».

تناقل الطلاب الرسمة في الصف. شعرت بآثار الغيرة في وجوههم. حاولت أن أخفف من وطأة الحسد والسأم في عيونهم. ذكرت لهم ما قاله سركوت. لست أنا الوحيد الذي تعيش في داخله... أنا وسبعة مليارات إنسان فقط.



(٨)

سرقت علبة بصاقي من سركوت وهربت. أحتاج أن استعمل بصاقي الشخصي هذه الأيام. لا أحب استخدام أشياء الآخرين حتى لو كانت في فمي. وضعت العلبة في جيب سترتي الداخلي وخرجت أمشط الشوارع بعد سقوط تمثال الرئيس.

أبحث عن أي شيء يستحق بصقة مني. بصقة من عندياتي ومن أعماقي. أتأبط العلبة أحياناً مثل سلاح أبيض. أخفيها عن الأنظار وأدللها.

تغيرت الأجواء كثيراً. الناس يثرثرون ويبتسمون بصورة طبيعية. عربات اللبلبي والشلغم والباقلاء تطلق غيمة بخار على الوجوه. السيارات تغذ السير في الزحام والزحام يفتح فمه ويبتلع كل التفاصيل. أنا سعيد بحرية البصاق. لكني حزين وبائس في الوقت نفسه. هل هذا من العدالة في شيء... في اليوم الذي تتاح لي فيه حرية استعمال بصقة لا أجد بصقة في فمي. لا أملك غير مياه الآخرين.. لا أعرفهم ولا يعرفونني وتسكن نفاياتهم في جوفي.

أتوجه إلى بيتي. بيتي شقة في الدور الرابع من عمارة تطل على سوق صغيرة للبقالة. مددت يدي للباص وهرولت كي ألحق به.



لحظة. لحظة. هناك من يعلق يافطة مكتوباً عليها فندق ومطعم أكثم. هكذا تقول زجاجة النافذة في الباص. فتحت النافذة. هناك رجل عجوز ينفث دخان سيجارته في وجهي. هذا محل للأثاث مكتوب عليه: أكثم للأثاث الماليزي.

طيب. ماذا يحدث؟ أحزنتني هذه اللعبة لذا رغبت في الاستمرار فيها، انعطفت السيارة نحو حديقة مدورة تؤدي إلى عمارة شقتي.

شركة أكثم للتأمين. جزارة الأكثم. مجوهرات أبو أكثم. أكثم للصيرفة والتحويلات المالية. أكثم شوب. أكثم للزجاج والمرايا. القابلة المأذونة أم أكثم. مخبز أكثم. خراطة أكثم. لتصليح الثلاجات والمكيفات وشراء وبيع المستعمل.. أكثم. عالم أكثم للشتلات والزهور. عصير طبيعي.. أكثم. شاورما دجاج فلافل مقبلات أكثم. أسواق أكثم. بايب فيتر أكثم. أكثم لقطع الغيار.

الأكثم للبايسكلات. مصور أكثم، أعراس ومناسبات. دجاج أكثم مذبوح باليد.

طلبت من السائق أن ينزلني هنا. قبل مسافة من العمارة. أحببت أن أتأكد ممّا يحدث بعين مقربة. أخرج من هذه السيارة المسحورة وأمشي.

عطارة أكثم. أكثم لبيع وشراء الدولار. ما زال هذا يحدث. الشارع كله مسحور. الدنيا كلها تحتفل بي وبخروجي من حجز الأمريكان وتحسن أحوالي الصحية.

تحسست من العلبة وتأكدت من وجودها. قررت أن أمضي نحو شقتي من دون اهتمام.

وأنا أمشي مقترباً من العمارة انسدَّ الشارع بفعل نقطة تفتيش شكّلها



رجال الأمن، قطعوا الشارع وأوقفوا خط سير المركبات. لمحني أحدهم فخفت أن أغير مسار طريقي. هل أنا مشهور ومحبوب وسيكون ابرازي لبطاقتي الشخصية محل فخر أمامهم. أم أنا مطلوب ومطارد وسيكون كشفي عن اسمي جرماً فادحاً أرتكبه بحق نفسي. هل أهرب أم استمر في المسير نحو نقطة التفتيش!.

وأنا أفكر تباطأت في خطواتي. أحد رجال نقطة التفتيش لاحظ ترددي.. أشار للآخرين فركضوا باتجاهي. حاولت أن أستدير لكني اصطدمت بأفق أسود. لم يكن جداراً ولا باباً.. إنه أفق مظلم عمّ الفضاء حولي.

كان حلماً. رفعت وجهي من الكابوس وأنا على القنفة في شقتي. تأكدت من وجود العلبة في رف الكتب. وعدت للنوم.

الباب تُطرق بضراوة. الفتحة تحت الباب تشحب وتضيء. الطرقات لا تصدر عن قبضة يد. هذا ما يبدو ويتضح من اهتزاز الباب. الباب تكاد تنبعج من ذلك الشيء الذي يضربها ويحتك بها. ليس لدي خوف أخاف به. الخوف في الثلاجة وداخل ظلامها. إحساس بائت من الليلة الماضية لا يأكله حتى كلب مجذوم.

يرتفع صخب الطرقات والطارق خلف الباب. أتمالك نفسي وأنهض وأفكر بالتعرّف على ذلك الشيء قبل أن أفتح الباب ويصيبني مكروه.

من هو؟، لماذا يرعد ويزمجر في الخارج ويستخدم كل جسده للطرق. حصان.. نعامة.. دب.. زرافة. أم سرب من الفلامنغو جاء يثأر لنفسه من طبيب حيوانات النظام.



قرأت المعوذتين وحفنة من الدعوات. دخلت المطبخ وجلبت السكّين وهاون الطحن. سألت الطارق من أنت!؟

من أنت.. الجملة تتبخر في الشقة قبل إتمام نطقها.

تبدد كل ذلك واختفت كل مخاوفي عن هجوم الحيوانات علي؛ وأنا أشم رائحة حكم. فتحت الباب بسرعة وعدت مضطجعاً على قنفتي.

دخل وهو يستند على الحايط بأصابعه. قلت له اغلق الباب إذا لم تكن برفقة أحد. وضع كيس الخيش الكبير الذي يحمله بجانبي وغلق الباب وعاد ليجلس بقربي. طفحت من الكيس حاجياته ولوازمه وتفاصيله وقاذورته وجاكيتاته وجواربه. لكن منظر الكتب بزواياها الحادة كان واضحاً في الكيس.

حكم لا يتكلم كثيراً. يجيب بما يلزم ويعلّق في حالات الضرورة القصوى. لم يُفقده فقدانه للبصر مثل ما أفقدته قلة الكلام الكثير من الامتيازات في هذا العالم. لا يهم الناس أن يراهم ولا يهمه ذلك أيضاً.. غير أن انعدام الكلمات في شخصيته جعله يخسر الكثير من طاقة التعبير. فراح ينثرها على الناس بألف طريقة وطريقة. ففي كيسه هذا الذي يشبه كيس بابا نؤيل.. مئات المنحوتات الصغيرة والتخطيطات. مئات الأعمال الفنية الغريبة.

«هذا يومي الأول في الشقة يا حكم. ما رأيك أن تنظفها معي، أنت تجلس فوق طبقة سميكة من الغبار، رائحة البقوليات ومعلباتها نصف المفتوحة تنطلق من المطبخ، المطبخ يحتاج إلى طن من المنظفات والمعقمات».



باشرت باستعمال المكنسة الكهربائية. تركته جالساً آملاً في أن يقلدني ويعاونني في بث الحياة إلى شقتي من جديد.

لمَا دخلت غرفة نومي سمعت دربكة خيول في الصالة حيث حكم. حكم يقلب كيسه ويفرغ كل محتوياته على الأرضية.

كيس العجوز الأعمى كان يختزن ما يفوق تصوراتي. تنكبس داخل حجمه الذي يوازي حجم إنسان بالغ، آلاف التفاصيل. سقطت وتخلصت من بطانة الكيس وملأت الصالة.. تل من النفايات والمدّخرات والتحف.

جمع بعضها من نهر دجلة، هذا واضح، حكم مغرم بقاذورات النهر.. ودجلة يموج مع نواعم صغيرة على سطحه.. بعضها صنعها وركّبها حكم بنفسه، وبين تلك وهذه أشياء لا رابط لها ولا واصل، أسلاك معدنية وأغلفة مجلات وأغطية قناني زجاجية وقداحات وأكواب وملابس داخلية.

وقفت أحاول السيطرة على نفسي وأكبت غضبتي. لأن حركاته كانت توحي بشعوره بالأمان التام معي. أمان يسامح كل تصرفاته وسخافاته الشوارعية. فنان تماثيل الرئيس هذا يحسن الظن بي بطريقة غريبة.

جلست أتابعه. يبدو أنه يهم بصنع شيء ما. بدأ يركب ويوصل الأشياء ببعضها. يستنهض بعض الأسلاك من تل التفاصيل.. يخلص قطعة معدنية من هنا ويفتل خيطاً هناك.

أخذني النعاس وتثاءبت لكني خفت من كابوس غفوة الظهيرة. تصورت أن الحيوانات التي ستظهر في منامي هذا سخيفة وثقيلة الدم.



خرجت ونزلت وجلست على كرسي مطروح بثلاثة أقدام أسفل البناية منتظراً تحفة حكم داخل شقتي.

تطلعت في أعالي المحلات والبنايات وأكشاك البقالة؛ بحثاً عن اسمي التي احتفلت به في الأحلام. نقبت عنه ولم أجده. مرت كلبة ضالة وأهدتني نظرة غير مبالية، تمنيت أن تكون هذه النظرة في المنام. أن ترمقك كلبة في المنام فهذا خير.

ارتفع خيط من الدخان خلف العمارات. فكرت أني نسيت سؤال حكم عن أشياء كثيرة، نهضت وتقدمت بضعة خطوات أمام العمارة كي أرى شباك شقتي. سرب صغير من الذباب يحوم حولها وأصوات طرق تخرج منها مع أشياء تسقط وترتطم بالجدران.

ندمت على تركي لحكم وحده. قد يصيبه خطر ما، فالرجل رغم براعته فاقد للبصر ويستعمل نظارة قلبه كما يقولون. لكن نظارة قلبه ستخرب بيتي. كادت أن تتسبب باختناق جرو صغير في فتحة الرئيس. نظارة قلبه غفلت عن غلق الرئيس وتركته مفتوحاً للحشرات والكلاب والهوام.

«افتح الباب يا حكم. أنا أكثم، أكثم للعطارة وشاورما الدجاج والطباخات العاطلة».

طرقت الباب وناديت حكم. كنت قبل خروجي قد أغلقته ورائي كعادتي، لكن المفاتيح في الداخل هذه المرة.

سمعته يختط الحائط ويتقدم. فتح الباب ثم رجع إلى مكانه، عدّل شيئاً في الشيء الذي يصنعه وفسح لي المجال لرؤيته.



فتح ذراعه مشيراً إليه مثلما يفعل النادل في المطعم وهو يدعوك إلى طاولة عشاء فخم.

صنع حكم أربعة أقفاص صغيرة مقسمة إلى خانات. فيها مواضع للأكل والماء، تصلح لإيواء حيوانات صغيرة. طيور أو سناجب وأرانب.

ضحكت كثيراً وقبلته على جبينه المتسخ ببقع رمادية مزمنة. قلت له يا حكم أنا أطمح حقاً لصناعة أقفاص ومشبكات لطائفتي الصغيرة. لكنها طائفة نحل، لم أحسم بعد مسألة ضم الحيوانات إليها.

ثم إن شقتي لا تتسع. الطائفة التي حصرتها في بالك وصنعت لأجلها هذه النماذج من الأقفاص أكبر بكثير. تنفع معها سفينة نوح.

ثم توقفت عن الكلام المباح وسكرت في هدوئي، أفكر في هدية حكم هذه.

نظف حكم ورشته التي اصطنعها في صالتي. لملم كل التفاصيل الزائدة وأرجعها إلى كيسه، استلم المكنسة الكهربائية ودورها على كل أرجاء الشقة. شاركني أيضاً في ترتيب الصالة وغرفة النوم وحمل معي بقجة ضخمة فيها ملابسي وشراشفي ونقلناها معاً إلى اللوندري.

حينما نزلت البقجة على مصطبة اللوندري. رفعت رأسي واختفى حكم. غاب وتركني مع نموذج أقفاص طائفتي. استعدت حماستي السابقة في التخطيط للأمر. ونزلت في اليوم التالي أطوف على النحالين الذين أعرفهم. سجلت منهم ما أحتاجه وأخذت بعض الأقيسة والسوائل والأغذية. ثم دلفت إلى سوق الغزل الشعبي الخاص ببيع الحيوانات؛ أنعم نظري بذكرياتي مع الطيور والقرود والأرانب. وبينما كنت أتجول وأتفحص الأسعار وأجادل الباعة لغرض مناكفتهم والتظاهر بالسعادة،



شعرت بدوار من رائحة الروث الغريبة وذرق الحمام المصاب بنزلة البرد. استجمعت ما في فمي لأبصق وتذكرت العلبة في جيبي. أخرجتها وفتحتها. مر طفل صغير مسرعاً وضربها لتسقط على الأرض وتتكسر ويسيح ما فيها الأرض.

صرخت عليه وشتمته دون أن أنتبه لتصرفي هذا ولاجتماع الناس حولي. أحسست بأني أفقد جزءاً عزيزاً من روحي.. هو قدرتي على البصاق الذاتي.



(٩)

من يتكلم ٥٠ كلمة فهو مخبّل. هذه من كلمات أبي المأثورة لي وأنا طفل؛ وهو يصالحني ويركبني معه الباص ذا الطابقين، ويسلمني الأجرة لأدفعها بنفسي إلى الجابي، يصالحني ويمسك أصابعي الصغيرة ويظفرها برفق.

«أما من يكتب على جدران بيتهم فماذا نسميه يا كثمان؟، من يتفوه بكلام زائد عن الحد ولا يحتاجه الناس، ماذا نسميه يا كثمان؟». يكمل أبي مذكراً إياي بالذنب الذي ارتكبته في الشخبطة على حيطان دربونتنا.

أغلقتُ شفتيّ وعصرتهما وأنا اسمع اسم الدلع الجديد هذا وأظهر له آثار ضربات حزامه العسكري على معصمي، وأكملت له في خيالي: من يكتب ٥٠ كلمة فهو ثرثار فعلاً. ومن يقرأ تلك الخمسين فهو فضولي وابن فضولي وابن فضولية، تعلمتُ القراءة كي أصبح فضولياً والكتابة كي أصبح ثرثاراً، أنظر للشارع يا بابا، طالع هذه اليافطات واللافتات والعلامات والإشارات المرورية، حينما دبغت جلدي بالحزام والنعل والسياط يوم أمس تمنيت أن تختفي كل الكلمات المكتوبة في الدنيا، تصبح الأوراق واليافطات فارغة ونمر عليها أنا وأنت، وتسألني من مسحها؟، فأقول لك ما هي؟ فتقول: الكلمات، فأقول لك: لم أسمع



بهذه الكلمة من قبل. لقد أوجعتني يا أبو كثمان وجعلتني أشعر بالذنب أمام كل كلمة مكتوبة في الدنيا، أتنكر منها وأتبرأ من كتابتها.

لقد صالحني أبي، وصار في الأيام التالية يشاركني الكتابة على الجدار، يصلّح لي الإملاء ويكتب بدلاً عني وأنا أملي عليه، يخطر له أن يسألني في بعض المرّات من عن الكلمات الفصيحة التي أسطرها. ومن تحت إي إبط متعفن تجلب هذه الكلمات يا أغبر؟، أكتم في صدري ابتسامة وأطلقها بعد أن يدير وجهه مثل ريح بطن.

اعتدت مع أبي أن أطلق الابتسامات مثل ريح البطن. إحساس بالدفء ورائحة بيض فاسد وصوت لا يشبه أصوات الفم واللسان مثلما يشبه أصوات الشرج.

نزلنا من الباص إلى مبنى تزدحم عليه عيادات الأطباء والطبيبات، أعرف أين نحن، هذا مشوار أسبوعي يصطحبني أبي فيه ليصلح أسنانه في عيادة الدكتورة راجحة القطان، أنتظره في الصالة الفارغة وأسمعه يتأوه من وجع أدوات الطبيبة في فمه، في العادة يتأخر نصف ساعة وأظل وحدي، هذه المرّة يجلس مواجهاً لي صبي آخر بعمري نفسه تقريباً، شعره طويل ومتموج مثل ستارة.

يفترض أن يبادلني هذا الولد نظرات دنيئة وغاضبة. من المنطقي جداً أن يقذف بوجهي أي شيء يقع في يده. غير أنه كان يحتفظ بملامح طبيعية ومحايدة أمامي، أتذكر بأني أظهرت له قلمي الرصاص، سلاح جريمتي على الجدران، وظللنا نحاول بزّي القلم بحك رأسه على جدار العيادة، ومن خلال تعاونه التام معي عرفت بأنه ولد نبيه ويعرف الدور الداعر الذي أؤديه خلال وجودي في العيادة. إنه يدري بأني أحضر



كحارس على الباب، حيث يخلع أبي أسنانه خلفه، ومطلع كل الاطلاع على خبايا ذلك الضوء المتلامض تحت فتحة الباب، وعارف تمام المعرفة بأن الأصوات الأسبوعية التي نسمعها أنا وهو هي أصوات خلع أمه الطبيبة لأشياء ينبغي أن تخلع في جسم أبي، ولكنها ليست أسنانه أبداً، ولا هي في فمه أساساً.

أصوات أمه وهي تضاجع أبي تشبه زمّار سفينة جاسئة.

الضابط والطبيبة يلعبان لعبة الضابط والطبيبة. هنالك ستة آلاف لعبة يمكننا اختراعها من عالم الكبار، عروسة وعريس، وضابط وطبيبة، الأولى سنلعبها أمام الكبار لنؤدي دور الأطفال أمامهم، والثانية نلعبها أمام الأطفال لنؤدي دور الأطفال السرسرية أمامهم.

أبي ينام مع أمك، هذه الجملة الفعلية المترجمة عن الأصل البذيء، هي من الشتائم التي نرددها في المدرسة، لقد حضرتها في تلك اللحظة ومنحتها حق المتفرج على الفرجة. ولا أظنها ستكون شتيمة لو كنت نطقتها أمام هذا الولد، لأن الشتائم تفقد قوتها لو تحققت. تسيح وتذوب وتتلاشى وتتحول إلى ندبة دائمية فوق الحاجب، حينما يسألك الناس عنها، تسكت. الشتيمة أمنية بذيئة.

أنا كمتعاطف صغير معه. قدمت له بعض أسراري وجعلته يرى كيف يمكننا اختراع قصة عن الفيل والببغاء. أو الثعلب والظبية.

ابن الطبيبة أعجبه الأمر. أراني ظفر إبهامه، شهره بوجهي متباهياً به، باشطاً وطافحاً بحبر لا مرئي، غرزه بالجدار وحاول رسم قصة مصورة على الحائط وهو يبتسم.

خرج أبي من الطبيبة كما يخرج الخارجون من طبيبة الأسنان، تحت



لغده الحليق كرة صوف وفمه مقفل بالآخ آخ آخ. صعدنا إلى السيارة ثم لحق بنا ابن الدكتورة، يحمل كيساً ورقياً. شرح لي أبي أن هذه هدية عليك أن تأخذها وتبتسم وتشكر مهديها.

في الكيس حفنة من الأسنان، نظيفة ولمّاعة وبيضاء. فرحت بها وقلت لمهديها الصغير: شكراً.

أحكي لكم هذا كي تعرفوا قصة الدكتورة راجحة. صاحبة عمارة راجحة..حيث أسكن. مهلاً، هناك جزء آخر من القصة. بعد سنة أو سنتين من ذلك اليوم الذي تعرفت فيه على ابن راجحة، خرجت من البيت ذات يوم ضمن سلسلة هروباتي المتعددة. يوم كنت أهرب بنية الهجران التام لأبي وأمي وبيتنا وأعود بعد عشر دقائق أو بعد ساعة على الأكثر.

كنت أمشي عائداً من هروبي فوضع القدر الدكتورة راجحة أمامي. ظلُّ الدكتورة لا يمشي معها في الشارع. يخرج منها ويستطيل ويتمدد ويدخل الشارع الثاني. ظلها أناني وخائن. كلما كبرت ظلال الناس صغرت أحلامهم. هذا ما أختبره اليوم وأنا أتذكر ذلك النهار العصيب، عند متابعتي للدكتورة راجحة وظلها العاصي.

الأسنان ما تزال في جيبي، أحملها معي أحياناً، فكرت باللحاق بها والسلام عليها وتذكيرها بي، هلو خالة، قصدي هلو دكتورة، أنا ماكث، هذا اسمي الكارتوني الجديد، كنت أكثم وأنا ابن الضابط كلافة.

لم تسمع ذلك الهمس، سمعت حذائي يرتطم بالرصيف، التفتت إلي وركزت في ملامحي، تعرّفت علي، توقفت وضمت يدها في العباءة، غطست عميقاً في السواد، أخرجت يدها ومدتها نحوي، سلمتني شيئاً وواصلت المسير؛ ظلها ظل يرمقني ثم تبعها.



تركت في يدي حبة تمر، . تمرة مقضومة. جافة تعبق بالبخور وروائح أخرى توحي بأنها خزنتها في جيبها طويلاً. خلاصة روائح التمرة صعبة ونفاثة وغريبة. لعله حال أي شيء يبقى محبوساً في جيوب النساء وأعماقهن.

انتبهت إليها تغذ السير بعيداً. مشيت خلفها وركضت خلف ظلها. تجتاز الدرابين والسكك والتقاطعات. لم تعد تمشي مثل طبيبة أسنان، . أردان العباءة تعبّ الهواء وتقلع أضراس الإسفلت.

لو تابعتها وهي تنعطف نحو الشارع الرئيس سأتاخر عن العودة. لا وقت لاتخاذ القرار. سرت خلفها وبقيت محتفظاً بمسافة متساوية بيني وبينها في كل خطوة. شياطين الضحى تتنزل في الجو والشمس تتثاءب في الأفق، وأنا أعلق بصري في عباءتها البعيدة.

أراها تنحدر نحو دجلة.

تختفي في حضن النهر، كادت سيارة فولكس واكَن أن تصطدم بي، سمعت شتيمة السائق تتلاشى في الهواء ولا تكتمل.

حانت النقطة التي أنزل منها إلى جرف دجلة. شاهدتها وأستعدتُ سوادها في عيني، خطوت باتجاهها، صرت أدنو منها وأحذر من مواجهتها. جعلت نفسي خلفها واقتربت.

تجلس عند كومة تراب منزوعة الحشائش قريبة للماء. اختارت مكاناً يبدو أنها معتادة عليه. إنها تحفر بأظافرها حفرة صغيرة، تعمقها وتردمهما وتذهب برأسها نحو خاطرة بعيدة. تهيم وتصوب نظراتها في مدى قريب، موجة قصيرة جداً من شعاع نظرتها البهية تبذرها على التراب.



لم أعد أهاب الاقتراب منها. وقبل أن أفعل بادرتني بالقول: روح جيب هذا.

تشير إلى مسحاة متروكة على مبعدة أمتار منها، لم أصل إليها بعد فقالت لي إجلب تلك العصا، وهي تشير إلى عصا نصف منغمسة في الماء.

تركت المسحاة وقصدت العصا.

قالت لي دع العصا، هات لي تلك الخيزرانة، اخلعها.

حاولت خلع غصن الخيزرانة، نهضت لتساعدني، تعاونا على فصم الجذع وتحرير الغصن. تبعتها وهي تعود حيث كانت. رمت العباءة تحتها. تحزمت بأطراف ثوبها وضربت الطين برجلها.

تكلمت طويلاً ولا أتذكر أو لم أفهم بالأحرى ما الذي كانت تقوله. ما معنى خذ الغصن وامسك النهر به. تقول وتعيد وتزيد:

«أنا سأمسك النهر، ثم أتركه بيدك، أعطيه لك لتظل ممسكاً به، هيا خذ غصن الخيزرانة وتعالَ نرفع النهر».

هذا ما حاولت أن تكرره لي أكثر من مرة فيما بعد.

أمرتني أن أضع الخيزرانة أو أية خشبة أو حديدة عند حافة النهر. مثلما نفعل حينما نريد أن نقلب جسماً كبيراً، نغرز العصا أسفله ونقلبه. استجبت لطلبها ورحت أغرز الخيزرانة في الجرف بصورة مائلة. أدفعها عميقاً وأحاول قلب النهر.

«أرفع أكثر، أقوى، أرفع مترا واحدا فقط وأنا سأنزل تحته».

انزويت بعيداً عنها. كانت توجهني بحركاتها. تضع العصا مائلة



وتغرسها في الهواء ثم ترفعها فتظهر لها دجلة وقد ارتفعت عن الأرض وصنعت طية خيالية تحتها، تقذف العصا وتدخل في الطية. هذا ما كان يحدث في رأسها.

انتبهت أن صياداً قد وصل حيث أجلس وهو ينظف مجدافه، صاح بي:

«إن هذه العجوز لافائدة منها، خذ منها مالاً ونفذ لها ما تقول، لا تأخذ منها أكثر من اللازم».

أفهمته أنني هنا لأني أعرفها، وأعرف ابنها، ابنها صديقي واخترعنا معاً قصة عن الفيل والببغاء ورسمناها.

سألني هل لهذه المرأة طفل غير الذي غرق في دجلة، عندها عرفت بأن الدكتورة راجحة فقدت ابنها الصغير غرقاً وفقدت معه جزءاً كبيراً من شعورها السوي بما حولها. وها هي تطلب من كل من تراه مساعدتها في رفع النهر والبحث عن ابنها تحته.

تقربت منها وأخرجت التمرة وقضمتها ثم أرجعتها لها.

«ستحتاجين إليها هنا، لا أحد يرفع النهر مجاناً».

ابنها أخذ كل ما عنده من الأسنان. خلع من جدار العيادة صورة توضيحية عن العناية بنظافة الفم، طواها وحولها إلى زورق. كان يحب تحويل كل ورقة إلى زورق. قال لي مرة إن المكتبة المركزية خلف عيادة أمه فيها مليون زورق.

شحن حمولة الأسنان على متن الزورق ودفعه. راقبه كيف يبتعد ويضطجع على صفحة الماء، ينكسر ويبتلعه النهر بسرعة، يحاول إنقاذ ثروته النفيسة من أسنان الناس. تحولت حمولة الأسنان إلى فك مفترس



بلا أبعاد واضحة. غرق صديقي. التهم النهر روحه وقذف جسده على الجرف بعد يومين.

بعدما تخرجت من الجامعة قادتني مكاتب العقارات إلى عمارة راجحة، استأجرت شقة عندها وصرت أراها يومياً. لم تعد تملك عيادة أسنان. لا أعتقد بأنها تتذكر شيئاً عن الأفواه.



(١٠)

على أحدكم أن يوقفني. يبحث عني ويجبرني على ترك الكتابة. ليس عدلاً أن أتذكر كل شيء، كل شارع وكلمة وصوت. هذا التركيز الشديد يصيبني بصداع رهيب. حتى لو أغفلت بعض التفاصيل. ما أكتبه يطول ويعرض ويفيض على الطاولة. أنتم تريدون حكاية مطيعة. تنفذ أوامركم وتعصيني. وهذا ظلم لا أطيقه. هذه حكايتي أنا. أنا من يريد أن يقول شيئاً لا أنتم.

سمحت لستة شهور بالمرور. انسلت من بين أصابعي مثل وشاح مطعّم بالمسامير. راجعت دائرتي القديمة آملاً باستعادة وظيفتي أو التعيين بأي وظيفة تناسب طبيباً بيطرياً يجيد مداواة الطيور والكلاب وتشريحها وتشريح التماثيل اذا انحشرت داخلها. كتبت سيرة ذاتية بثلاث لغات، عربية وكردية وانجليزية وصرت أسلمها لكل أصدقائي البياطرة وأساتذتي القدامى. كنت أتلقى بعض العروض من مذاخر الصيادلة أو الأطباء البشريين للعمل كمدير للعيادة أو كفراش. أرفض كل ذلك بلطف وأسحب وجهي بهدوء من لقاءات عابرة تجمعني بهم.

أتابع بريدي الألكتروني وأتفحصه كل صباح وأنا أشرب الشاي. لا أجوبة مهمة لمراسلاتي للمنظمات والمؤسسات المعنية بالحيوان. لا شيء غير رسائل منظمة أمريكية مهتمة بموضوع هروب حيوانات الرئيس



وأخبار متفرقة عن ذبحها واضطهادها. جذب اهتمامي خريطة في إحدى الرسائل تقود إلى مكان اسمه مقبرة الحمير..مقبرة حمير أخرى غير تلك التي شيدت فوقها المستشفى. يذكر هامش الخريطة أن البلاد فيها أكثر من مكان يدعى مقبرة الحميرة.

الخريطة مزودة بصور من الأقمار الصناعية مع وصف دقيق للشوارع المؤدية إلى مقبرة الحمير الثانية. تفترض الرسالة أن هذه المقبرة هي مكان لدفن الحمير والحيوانات الميتة وتدعي أن عظام الحيوانات المدفونة بطريقة سيئة تحت النصب والتماثيل جاءت من هذه المقبرة.

تتبعت الخريطةِ وقادني باص صغير ثم سيارة أجرة صغيرة إلى نقطة تنتهي عندها كل إشارات الخريطة. هنا تؤشر الأسهم والأكف ورموز المكان الألكتروني المأخوذة من ملقم الجوجل إيرث.

لم أجد غير مدرسة للبنات وشارع فرعي يكتظ بباعة إطارات السيارات وكمالياتها.

مرَّ سرب من الغاق وكتب الرقم ثمانية في الجو، اختفت الثمانية خلف الشمس التي تهمّ بالغروب. ثم عاد السرب واقترب وأعاد كتابة الرقم ثمانية. ظهر الرقم أمام الشمس مثل مزحة في الأفق. كأن الشمس تضع شارباً في وجهها. تتنكر وتدفن وجهها في وسادة الظلام.

«هل تعرف مقبرة الحمير. يقولون إنها قريبة من هنا»، سألت شاباً وهو يمر أمامي بدراجته، واضعاً سماعة كبيرة على إحدى أذنيه. التفت إلي وابتسم ثم مضى في طريقه.

انتظرت أن يمر أي شخص يمشي على إثنتين لأسئله. حل الظلام وبدأت أضواء السيارات تنوب عن الشمس في إخافتي.



تقدمت ووقفت وسط الشارع. رفعت ذراعيّ للسيارات ثم انزويت على الرصيف. توقفت سيارة أجرة وتقدمت نحوها. سألته السؤال نفسه عن مقبرة الحمير.

هذا مثل سابقه، أهداني ابتسامه بدت من تحت يشماغه. كان متلثماً ويعصب رأسه بمنشفة. حينما أكمل ابتسامته ضغط على دواسة البنزين وانطلق وارتميت أنا على الأرض. انتبهت أن سيارته لم تكن فارغة. في المقعد الخلفي شواخص سود. ثلاث نساء يحركن رؤوسهن ويلطمن. لاحظت قبل اختفاء السيارة وانعطافها نحو الشارع الرئيسي أن هناك تابوتا على سطح السيارة.

قبل أن أنهض مرّت سيارة أخرى تحمل تابوتاً. مرت ثالثة ورابعة وخامسة.

اهتديت إلى زقاق ضيق فسلكت فيه قَدَميَّ. ربما لأني أبحث عن أي حيز لأختفي فيه متوارياً من سؤالي السخيف.

انتهى الزقاق سريعاً بعد دخوله في حي شعبي صغير تقود كل درابينه إلى ضفاف دجلة.

وجدت نفسي على متن دجلة مثل شيطان صغير يوسوس للنهر. بضعة تلال يجمعها سور واطيء من الطابوق الأحمر القديم. اتجهت إلى ما وراء السور. أصبحت بعيداً جداً عن أواخر البيوت والأزقة والشوارع. قريبٌ جداً من مساحة مظلمة لا شيء يقلق هدوءها سوى نقيق الضفادع ونعيب حيوانات الليل.

هذه مقبرة الحمير وهذه شواهد أبو صابر كما يسمي الناس الحمار.

أبو صابر كناية عن التحمل والتصبر على المشقة. إذا تذكرتم هذا



الاسم وأنتم هنا سيهبط عليكم شعور بالراحة. فهنا استراحت مئات الحمير من متاعب الدنيا. ومقبرة أبي صابر مقام للاستراحة من الأثقال.

هذا الإحساس تبخر حينما سمعت وقع أقدام تنده العشب ببطء. تواريت وانبطحت تحت السور المنخفض. اقترب ذلك الشيء وعبر السور من الجهة الأخرى. وضعت خدي على التراب وسألت نفسي عن سر وجودي في مكان بعيد خارج المدينة. ولماذا أراني أعصر خدي على التراب وأتنفس العفونة والديدان.

رفعت رأسي وبحثت عن الشيء. إنه موكب صغير من النسوة الملفوفات بالسواد. يحملن جسماً مربوطاً جيداً بسلك تلفون أرضي، مغطى ببطانية، تتعاون النساء على حمله، ثم يظهر رجل يركض نحوهن. يتلقف الميت ويضعه على الأرض. يصيح بهن: لا تدخلن المقبرة، خلاص أنا استلمت، لا تضعوا أرجلكم خارج السور.

زحفت نحوهم بما يكفي لرؤية تفاصيل تلك الجنازة. تراجعت النسوة وهربن إلى حيث البيوت ثم انتهت خطواتهن داخل سيارة. شغلها سائقها واختفى في ظلام الشارع.

عدّل الرجل من وضعية الجنازة وحفر لها حفرة بيديه. سحبها إلى الحفرة ودفع إليها بحذائه كومة تراب، ثم صعد فوقها وظل يقفز حتى انخفضت التربة وتساوى قبر الجثة بالأرض.

غاب الرجل. نهضت وبحثت عنه متتبعاً صوت مشيته في المسارات الترابية الصغيرة التي تتفرع من مقبرة الحمير. شاهدته يظهر ويختفي في بستان تحيط به أشجار الصفصاف حتى دخل في غرفة طينية صغيرة.

حبست أنفاسي وأنا أرى باب الغرفة ينفتح من جديد. خرجت منه



عجوز ضئيلة وحدباء. ويظهر أنها عرجاء أيضاً، تقدمت ورفعت غطاء تنور الطين القريب لأعرف بأن قدمها مبتورة من الكاحل. انفتح الباب مرة آخرى وخرج منه ثلاثة صبيان وبنت صغيرة، بلا ساق. بلا يد. بلا ساق بلا يد. هكذا هم على التوالي.

الأطفال المعاقون تعلقوا بالعجوز. أخرجت هي حقيبة صغيرة من التنور وفتحتها وو وضعت في يد كل واحد منهم شيئاً، فلوساً أو حلوى؛ لا أدري.

قادتهم جميعاً إلى الغرفة، دخلوا وعلت ضجتهم ورقصاتهم من نافذة الغرفة المربعة.

جلست أتأمل شكل الدار وحاجيات تلك العائلة المنتشرة في باحة البستان، أواني وحقائب وصحون لاقطة. ظهر الرجل مرة أخرى، يهرول وعلى أذنه هاتف محمول. انتظرت أن يمر لأتبعه، ألحق به واستغل استعجاله وغياب إحساسه بما حوله.

يبدو أن المشهد السابق يتكرر. هذه المرة مع رجل وامرأة يحملان جسداً آدمياً داخل بطانية. أمرهم الرجل أن لا يقتربوا من السور. تسلم الجثة ووضعها داخل المقبرة. دفعهم وأمرهم أن لا يصدروا صوتاً، أخرجت المرأة شيئاً من جيبها يظهر بوضوح بأنه ثمن أجرته.

حمل الدفان الجثة وتوغل داخل مقبرة الحمير. كرر حركاته السابقة مع الجثة المربوطة بسلك التلفون. قفز على تلة القبر الصغيرة حتى تسطحت واستوت. نظف دشداشته من التراب وتمخط بين القبرين وغادر المقبرة إلى غرفة الطين.

طردتني تحذيرات الرجل خارج المقبرة، تصيبني كلماته وأنا أتطلع



إليه بالهلع فأركض وافتعل ضجة، أتعثر وأسقط وأنهض ثم أضغط على بقعة طينية كبيرة وأشعر بقيمة البكاء في لحظة كهذه، يجري نحوي ويصيح عليَّ، تستيقظ عائلة البتران كلها وتجري خلفي.

أصل إلى الشارع لأرى الرجل والمرأة يصلان قريباً من سيارتهما.

أتعلق بهما وأتوسل طالباً الركوب معهما.

لا ينجح الأمر فالمرأة تبكي والرجل يضرب صدره مثل من يخرج لقمة عالقة في مريئه. لم يسمعا طلبي ولم يهتما لاستغاثتي.

«دفنتها وأجيت أبو مراد. عزيزتك وجمرة قلبك. ساويتها بالتراب. وين رايحين. رايحين للبيت. ضحاوي بعيدة عن البيت. نسيناها هنا. ارتاحينا منها. ما نعرف بنية اسمها ضحاوي. هذا أبوها صدره انخسف حتى لا يحني راسه. تعال هنا. تعال شوف بنتك. تعال يمكن عطشانة. تعال اسمعها دخلت للكلية. طلعت من الكلية. لابسة نفنوف أخضر. تعال ليش تركناها هنا. تعال أبو مراد. تعال انزل من سيارتك. ما أصعد. انزل خلينا نرش قبرها ونشعل بخور. شفت كيف نزلناها من السيارة. شفتها؟ كانت متلحفة بالبطانية مثل فستان العرس. هذا الكرسي صار أحلى من الكوشة. أنت ما تعرف الناس. كم مرة خطبوها وحضرتك تريدها لابن عديلك. هاك شوف. يلاّ تعال حبيبي. تعال يا أخو زماني. تعال نشتري حذاء لضحاوي».

يركب الرجل سيارته غير عابئ بصراخ زوجته. واضح بأنها زوجته. والجثة المدفونة ابنتهم. قتلوها وجلبوها هنا.

تركتني عائلة البتران أصغي لعائلة الخسران. كلما أتفرج على صورة المرأة وهي تعنف زوجها وتلعن نفسها. تؤدي ما عليها في دور الأم



الندمانة وتقضي ما في ذمتها من بكاء لكي تواصل الحياة من دون ندم يذكر، وشعور بالأسى في تفويت طقس بكائي يلزم ليلة دفن البنت الخاطئة.

بقية المشهد فسرت لي كل شيء، أحسد نفسي على تذكر اسم البنت وابيها في نحيب الأم. وأحسد عائلة البتران على هدوئهم أمامي وكف أياديهم عني.

هذه لم تكن مقبرة الحمير. إنها كذلك في يوم م. قبل خمسين سنة أو ما يزيد. لكنها اليوم ومنذ سنوات مقبرة الصغيرات الجميلات المقتولات غسلاً للشرف. هذه التلال الصغيرة التي تعاقب الدفان فتطفو على السطح بعد تسويتها، هي للبنات.

تركت عائلة البتران تتأكد من انصرافي. غفلوا عني ومشوا باتجاه بيتهم. لكنني عدت ودخلت حمام الشرف مع ليفة قلق وصابونة كوابيس.



(١١)

السيد رئيس الولايات المتحدة الأمريكية

السيد سفير الولايات المتحدة الأمريكية في العراق

السيد أمين عام مجلس الأمم المتحدة

السيد رئيس منظمة الهلال الأحمر

السيد رئيس مجلس الأمن

السيد رئيس الاتحاد الأوربي

السيد الذي يهمه الأمر

أنا جميل فليح جبارة، الملقب بجميل يحترمني، عمري ٥١ سنة ومتزوج من السيدة زغلة دهراب وليس عندنا أولاد. أكتب لكم قصة عمري الحزينة، عسى أن تنال رأفتكم وتكسب عطفكم الأبوي. أنا لا أجيد التعبير والإنشاء. ما تقرؤونه هو ما كتبه عرضحال شاب أمام محكمة الأحوال المدنية. استمعَ إلى قصتي وتأثر بما جرى عليّ من ظروف قاهرة تكسر قلب كل شريف في هذه الأرض.

ولدت في ميتم الزهور ببغداد. كان أبي حارساً وأمي فرّاشة. أنا ختين الملك، في حفل ختان الأمير الصغير ولي العهد قررت المملكة أن تحتفل وأن يختن مع الأمير كل اليتامى غير المختونين في ميتم الزهور.



كان عددهم ٤٠ يتيماً. قرر أبي أن يحشرني بينهم لأنال ذلك الشرف ويتخلص هو من تكاليف حفل الطهور وأجرة المطهرجي. جمعت أمي كل بقايا عملية الختان الملفوفة بالشاش والقطن في سلة من الخوص واحتفظت بها سنة كاملة. حتى عثر عليها أبي ووبخها وأجبرها على رمي تلك المخلفات في نهر دجلة.

تقول أمي إن الأسماك تطافرت وهي تقزقز الأشياء المحذوفة من فحولة الصبيان. وهكذا كلما شتمني أبي كانت ترد عليه بأني ختين الملك.

ليست هذه قصتي، اشتغلت مع أبي كمنظف لرؤوس الذرة، شغلتنا كانت نزع الأغلفة عن الذرة فقط. ثم اشتغلنا في مطعم لأكلة الباجة، كنا ننزع الصوف من رؤوس الخراف. وليست هذه قصتي. حينما كبرت ودخلت المعهد الطبي اشتغلت مع شركة يابانية لقياس نسب الملوحة في نهر دجلة. وظيفتي كانت تذوق النهر وكتابة انطباعاتي عنه. للشركة أجهزة متطورة وخبراء وتقنيات حديثة. وشغلتي هي ملء كوب من البلاستك وتسليمه لهم بعد تذوقه. ثم يوضع في أجهزة الطرد المركزي لتحليله. كانت مجسات اللسان الطبيعي ضرورية بالنسبة لهم. حدث اختلاف بيني وبين أحد المتذوقين الآخرين ولكمني على أنفي فسالت دمائي، وليست هذه قصتي، اعطيت رأيي في مذاقه فضربني واشتكى علي وطردت من عملي. وليست هذه قصتي. اشتغلت بعد ذلك مع أمي، كابن للفراشة، وظيفته بري أقلام التلاميذ بواسطة قطاطة حديدية فخمة. ثم طردت من مهنتي تلك لكبر سني، انضممت بعد ذلك إلى عالم عربات الباقلاء واللبلبي، اشذب حبات الحمص والباقلاء من الشوائب. وليست هذه قصتي. كما قرأتم فأنا معتاد على أعمال كهذه،



مدمن على ممارسة الاحتياجات الطرفية البسيطة، أنا باختصار رجل الوظائف التي لا داعي لها. أنا لا داعي لي أصلاً. زوجتي تسميني أبو فلان دائماً. اسمعها تذكر اسمي في ثرثراتها بين الجارات والمارّة فتقول: راح أبو فلان، جاء أبو فلان، نام أبو فلان، مع العلم أن ابننا الكبير الافتراضي اسمه سلمان..سهل على النطق وخفيف على اللسان.

سلمان وباقي الأولاد الافتراضيين يمتهنون اعمالاً لا داعي لها أيضاً.

و هذا شعور عظيم. اكتشفت ذات يوم وأنا اسأل عن أصلي وفصلي بأن كل أجدادي وأخوالي واعمامي قضوا أعمارهم في الاشتغال بمهن لا يحتاجها أحد مثل هذه. أنا متأكد بأنكم في بلادكم لديكم أشياء مثل هذه، أشاهد في الأفلام الهندية اناساً يظهرون في الشاشة ولايفعلون شيئاً، يركضون في المعارك أو يمشون في الشارع تحت المطر وفي أيديهم مظلات أو كتب أو جرائد. انا أحب الأفلام الهندية لكن هذه ليست قصتي.

لا أعرف لماذا نقلوني إلى المستشفى البيطري الخاص بعد أن اشتغلت في مدينة الطب. ربما لأنهم كانوا يحبذون الذين لا داعي لهم ولا مدعي، مثل داعيكم أبو فلان. ولكن هذه ليست قصتي. سألتهم ما الذي افعله في ذلك المبنى البعيد الذي يعج بالقطط والكلاب والخيول والوحوش. قالوا لي عليك أن تحترم الجميع. وحينما مارست عملي كما يطلب مني لقبوني جميل يحترمني.

ولكن هذه ليست قصتي، هناك ما أنوي قوله لكم في مناشدتي هذه، اسمعوني حتى النهاية.

قبل أن تدخل جيوشكم إلى العراق، بيوم أو يومين أو ثلاثة أيام،



لست متاكداً من التاريخ، لكن هذا حدث في آخر النهار. دخلت المستشفى الخاص قوة أمنية تحمل تمثال الرئيس. وضعوه على مصطبة التشريح. طلبوا مني احضار الطبيب الخفر. ناديته لهم، صحت عليه وطرقت باب غرفته. لم يستيقظ. وهذه ليست قصتي، وليس من مسؤولياتي ايقاظ أحد، كنت هناك لاحترم الجميع واعطيهم المناشف وأنظف الحمامات والمطبخ. تأخر الطبيب في القدوم فدخلوا عليه وداسوا على رأسه ببساطيلهم. أمروه بفتح تمثال الرئيس واسكات الشيء الذي يئن في جوفه. هنالك جرو صغير في بطن الرئيس. دخل لاجئاً إليه من قساوة الظروف المناخية. وحينما تحرر الكلب كان معاقاً، وهذه ليست قصتي، أنا حنوت عليه وطببته وجعلته يمشي ويأكل ويمرح ويركض ويضاجع!.

نعم يا سادتي، ورغم أن هذه ليست قصتي، لكني لحظت فيه شيئاً بعد أن صار يرافقني ولا ينفك عني ويشعر بالأمان معي. كلبنا هذا مثلي الجنس، لا يضاجع إلا بني جنسه، وليته يكتفي بذلك مرة أو مرتين. إنه يصاحب الكلاب السمان العجائز والشوارعيين المشردين منهم تحديداً، يأخذونه معهم ويقضون وطرهم معه. أو قد يفعلون ذلك به أمامي. يزورونه زرافات ووحداناً. وصار الأمر جزءا لا يتجزأ من وجوده وتصرافاته وبواعثه المعيشية والغريزية.

كلب مثل هذا لا يقوى على العيش هنا يا سادة. اقبلوه في بلدانكم كي يمارس حريته. واقبلوني معه لاجئاً سياسياً أو انسانياً، فهو لا يستطيع العيش بدوني.

أنا كل شيء بالنسبة له.



استيقظت اليوم على لعقات لسانه وهي تمخر وجهي، لم يهدأ بعد أن سكبت له كوباً من الحليب في طاسته، كان يحثني للصعود إلى السطح، لأتبعه وهو يتقافز على السلم بخفة لم أعهدها فيه. لقد صنع لنفسه شقاً من الصور الانتخابية لرجال يلبسون البذلات الرسمية مثل الرئيس، أحاط نفسه بها كلحاف دائمي يذكره بطفولته.

مرنت نفسي لأجل الحفاظ عليه وأتمرن لأصبح قواداً له، أسمح له بادخال الكلاب الضالة وأتركها معه في السطح، لم يكن الأمر هيناً، الكلاب تنزل من السطح مترنحة من النشوة، أستطيع ملاحظة ذلك من عيونها وذيلها المزهو بخفته، ينزل هو بعد دقائق، يتأخر قليلاً بعد نزول رفيقه، يقفز على درجات السلم متعباً لكنه سعيد.

أضع عيني أحياناً في ثقب الباب وأتابع ما تفعله الكلاب على سطحنا، داومت على ذلك حتى أدمنته وتخلصت منه بصعوبة، بصراحة لم أتخلص منه تماماً قبل أن يقرر التعرف على شريك مثله. أعرف أيضاً أن خاكي لم يتدبر ذلك بسهولة لأن عثوره على نظرائه مهمة شاقة جداً.

ما يهم أني تخلصت من أنظار الكلاب المنتشية بانجازها تلك المهمة السطحية، بعضهم يتكرر في القدوم إلى البيت، يحب تجريب ذلك مرتين في الأسبوع، وصارت رائحتي مألوفة بالنسبة له، صرت جزءاً ممّا يحفزه جنسياً تجاه كلبنا، البيت كله صار يغريهم، ملابسي ووجهي وحذائي، زوجتي زغلة وابناؤنا الخياليين وزوجاتهم وأقاربنا. كل هذه الأشياء والمخلوقات كانت تثير فيهم الشهوة. لكني المتضرر الأكبر فهم يلعقون رجلي ويتعلقون بي، يراودونني عن نفسي. الكلاب تراودني عن نفسي يا سادة. لكن هذه ليست قصتي.



أكتب لكم هذه المأساة، راجياً التدبر فيها. هذه حالة الكلب الذي اسمه خاكي. هذه البلاد لا تنفع هذا الكلب. لا تريده ولا تتوافق مع ميولاته. هذا الكلب لا يستطيع التخلي عني وليس بمقدوره التخلي عن طبيعته الجنسية تلك. ما الحل؟، هل نقتله وننفيه من عالم الدنيا أم نطرده من البيت لتتلقفه طوارق الليل والنهار أم نضعه في كيس جنفاص ونربطه ونقذفه في دجلة بعد ان ندس معه خمس طابوقات اسمنتية؟، قولوا لنا يا سادة. وهذه ليست قصتي، أنا بلغتكم بهذه الحالة والأمر لكم ولقلوبكم الرؤومة. اقبلونا في بلادكم رأفة بذلك الكلب. واحتراماً لحقوق الحيوان ولكل مواثيق الحفاظ على البيئة ومكونات الطبيعة وعلاقات الانسان بجاره الحيوان.

أخرجونا إلى الخارج.

التوقيع

جميل يحترمني



(١٢)

تعيش عائلة البتران في مقبرة الحمير. تعيش عائلة البتران في مقبرة الحمير. تعيش عائلة البتران في مقبرة الحمير. تعيش عائلة البتران في مقبرة الحمير. اكتبها أربع مرات. تخيّل أن السطور أسلاك تصل بين أعمدة الكهرباء والكلمات عصافير تصطف عليها. إذا ملت عن السطر ستقتل عصفوراً.

قلت ذلك لعديّسة. أحد أطفال عائلة البتران وأنا أعطيه درساً في الإملاء. تحمس عديّسة للكتابة وكتب عشرات الصفحات، كان سعيداً بقتل العصافير وأصبح يسدد الكلمات على الورقة بنشوة وحبور. زادت نصائحي خطه سوءاً وبدلاً من أن تنحرف الكلمات قليلاً عن السطر صارت تتعامد عليه.

عديّسة يعذّب العصافير ويقلب السطور عاليها سافلها.

عثرت عليّ عائلة البتران منبطحاً في قلب المقبرة. ايقظوني وحملوني وأنا في سكرة النعاس إلى كوخهم. سمحوا لي بالنوم عندهم وخلصوني من خوفي بشرشف ومخدة ونومة هادئة حتى ظهيرة اليوم التالي.

لم يسألوني من أكون. عاملوني كمتشرد. وبيني وبينكم أقولها؛ كان شكلي في تلك الأيام قابلاً لصورة المخبول الهارب من الشماعية إذا



اتسخت ملابسي واندمغ جبيني بالأطيان، وماذا يريدون أكثر من ذلك كي يظنوا بأني متشرد يفطر باب القلب ويبتلع مفتاحه ويشرب بعده سينالكو.

بعد استيقاظي اندمجت مع مراسيم العائلة. ضاحكتهم وباسطتهم. وأخذت عديّسة إلى ضفة النهر حتى اعلّمه الإملاء الصحيح. شاهدته يكتب في الهواء بيده اليسرى ويحرك كتفه الأيمن الذي ينتهي بذراع مبتورة من الزند. فاقترحت عليه أن نكتب معاً. يغضب عديّسة إذا تسارعت خطواتي ونحن نخطو نحو ضفة النهر، لأنه يتعب ويلهث وتضيق أنفاسه إذا مشى بسرعة. طلب مني كتابة اسمي على يدي، مددت له كفي واحتضنها وكتب اسمي فابتسمت، أ ليس طبيعياً أن ابتسم! ، عديّسة تغضبه المشاعر الاعتيادية ويرد عليها بالشتائم. كل التعابير الطيبة للناس سخيفة بالنسبة له. يتراوح عمره بين ١١ إلى ١٣ سنة لكن قدرته على تأليف العبارات الداعرة تفوق سنه بعشر سنوات. تعودت أن أتلقى ما يفلت من لسانه بزم شفتي فقط، وأحرص على حبس ابتسامتي حتى لا يعتبرني سطحياً بالنسبة له ويقذف شتيمة أخرى.

تنتمي عائلة البتران إلى رزمة عوائل غجرية تسكن هوامش المدن. بعد كساد مهنة حفلات الأنس والكيف في بيوت الوبر والصوف وهروب الكثير من الذين تعودوا على احيائها من كبار المسؤولين، صارت عائلة عديّسة تتسول في الشوارع.

مبدئياً، هذا هو التاريخ الميسر لعديّسة وأبيه الدفان واشقائه وجدته العجوز التي تخبئ فلوسها في التنور.

أخوة عديّسة ينفرون مني. اعتقدت في البداية بأنهم يحسدون عديّسة



على مرافقتي له، ثم ظهر لي أنهم ينفرون من كل ما له صلة به. ومن كل ما يقترب منه. تهمس لي أخته بأن عديسة مُعدٍ ومشؤوم. صلعة عديّسة وتلك الدمامل البارزة من أنفه يوحيان بذلك فعلاً. أنا عرفت حدود السير اللازمة للسلامة في مقبرة الحمير. لا اقترب من القبور ولا أتوغل عميقاً في المقبرة ولا أصاحب عديّسة، لكني تعمدت كسر الحد الأخير وحضنت عديّسة وتحملت وساخة لسانه وعلمته قتل العصافير.

لذلك تنفر مني العائلة، وذلك صعَّب عليّ استيعابهم وفهم اهتماماتهم. الأب ينشط في الليل على موسيقى نغمة الموبايل. ينهض مسرعاً من فراشه المطروح دائمياً على الأرض ويتسلم جثامين الفتيات المقتولات غسلاً للشرف. والد عديّسة مغسلة بورسلين آدمي يتمخط فيها شرف الأوادم المصابين بانفلونزا العار والخوف من العار حتى لو قضى ذلك على أنوفهم. الذين يضطرون لتلميع شرفهم مثل حذاء قبقلي كل يوم. والد عديّسة يوفر حماماً رخيصاً لتزييت الشرف وتشحيمه وجلكه.

تبدو الجدة هي الحاكمة، شاهدتها عن قرب مرة واحدة وهي تحمل مرآتها وتركنها على جذع صفصافة. تتعرى وتكشف لنفسها مباهج جسدها الذاوية، أطلال لحم غجري بائت في ثلاجة الزمن العاطلة. تترك شالها يعصّب رأسها وتقرص العجوزة حلمتيها. تخلل أسنانها وتنبش أنفها ثم تنزل النهر وتنزوي تحت الأغصان النائمة على الشط.

حينما تخرج تنزع عمامتها الملونة بأطياف الشمس، كل الأطياف عدا الأحمر والأزرق.

الجدة صلعاء مثل حفيدها. يمشي على صدغها خط أخضر يتوقف عند سوالفها ويورّد زهرة صغيرة. جسدها في الواقع لوحة وشوم خضر



وقاتمة. لا يسلم من الزهور الموشومة في جسدها إلا عانتها المخضبة بالحناء.

قلت لعديّسة بأنني طبيب.

«أنا طبيب أيضاً، تأتي النساء كل جمعة ليأخذن بصاقي ويضعنه على الجروح والندوب والقروح، أنا طبيب قروح»، يقول عديّسة وهو يلهث ويضع كُم ردنه الفارغ في بنطلونه.

«أنا طبيب للحيوانات فقط ولا أعرف الكثير عن القروح، ساتعلم منك ما دمت هنا. كنت أعمل في مستشفى بيطري واليوم أنا بلا عمل، ما رأيك أن تساعدني في عملي. عملي لا عمل حالياً. لكنني أسعى لجمع طائفة خاصة من النحل، أربيها وأبيع عسلها، ما رأيك؟».

يصعب أن أصل معه إلى مقام الجدية. ويصعب أن أتوقف عن مساءلته. يظن البعض بأنه صبي مبروك ويجلب الشفاء لمن يلامسه، عكس ما تظنه عائلته.

في اليوم الثالث الذي قضيته مع العائلة قرر عديّسة أن يصحبني إلى حفرته الصغيرة المشاطئة للنهر. فتح لي صندوقاً صنعه بنفسه من شرائح الأشعة الطبية. طلب مني أن أقرأ شدة أوراق يخزنها في حفرته كمقتنيات نفيسة.

«يمكنك ان تجني المال من هذه الصناديق».

يتحدث بصوت المغتر بميزة فريدة ويقول: «هذه تحليلات قفصي الصدري ويدي فإذا زودتني بشرائح الاشعة كل يوم ساصنع صندوقا كل يوم».

«اشرح لي كيف تصنع الصندوق».



«هكذا وهكذا وهكذا»، يعيد فتح الصندوق الذي هو عبارة عن ورقة الأشعة مطوية بعد تقسيمها إلى مربعات ثم يركبها من جديد بخفة بالغة.

سمح لي أن اتفحص التقارير والتحاليل والوصفات. ظل يراقبني ويحرسها بعينيه. اطويها فينهرني ويضربني على يدي مع نصف شتيمة قاذعة. فهمت من التقارير لماذا يعتبر البعض عديّسة كائناً نورانياً يستأهل التبرك والتمسح. طلبت منه ان أقرأ تلك التميمة على صدره فعاندني وانقلب على بطنه ومد يده في الماء. تركها مغمورة في دجلة لدقائق مدعياً بأن الأسماك تلعق أصابعه وتتمسح بها.

خلع تميمته وفتحها وسلمها لي. وحالما اصطادت عيني الكتابة في المطوية سحبها مني. استطعت أن ألمح اسماء بعض الناس وأمنياتهم. إنهم يعلقون الأمنيات في رقبة عديّسة. وعديّسة بالنسبة لهم كائن مصاب بالنور والإشعاع. ما هو ذلك النور وما هو نوع ذلك الإشعاع؛ هذا لا يهم.. عديّسة ينضح بالبركات والأنوار بالنسبة للكثير من الغرباء عنه. هو نفسه يمتلك معلومات غائمة عن حالته التي تفضحها التقارير وجسده الناحل المعتل. تعرض خلال عمله مع أبيه جامعاً للمخلفات الحربية إلى موجات الإشعاع المسرطن عشرات المرات، ففقد جسده الكثير من وظائفه الحيوية. أما يده فقد فقدها مثل سائر إخوته خلال العبث بتلك بثمار الحرب المحرمة.. الألغام.. جنياً للمال الذي يدفعه سماسرة الحديد والنحاس والبارود.

«هؤلاء النغولة لا يأخذوني معهم»، تذكر عديّسة شيئاً وأحب مشاركتني به. لا أرى نغولة في الأفق، إنه يشير إليهم في رأسه. جماعة من الناس تركوا جرحاً في ضميره وها هي ذكرياته معهم تطفح على



لسانه. تجاهلت الأمر وأنا منشغل بقراءة التقارير، لكنه كرر العبارة مرة أخرى.

من هم هؤلاء يا عديّسة، قال لي إنه لا يقصد جدته ولا أباه ولا أخته ولا أخاه. قبل أيام كان يتطلع إلى مشاركة موكب الأطفال المعزين بمناسبة عشرة عاشور. مجموعة من الذين يدانونه في العمر والاهتمامات. صنعوا موكباً لتوزيع الشاي والكعك.

لم يسمحوا له بالانضمام إليهم. طردوه وأهانوه وأمروه بالابتعاد عنهم. ظل يطل عليهم من أعالي الشجيرات. يرميهم بالحصى ويهددهم بتخريب موكبهم.

لم يأبهوا له واستمروا في أداء طقوسهم. شكّلوا مستطيلاً باجسادهم ورددوا التعزية وكرروا الأمر مرتين وثلاثاً. مر عليهم موكب للكبار مع حصان أبيض جميل محلّى بالكراكيش والأجراس يؤدي دور التشابيه، إنه فرس تأريخي لأحد الأئمة، يقلد هذه الصفة ويمثلها خير تمثيل، يثير بكاء المعزين ويأسر قلوبهم بمشيته وهيبته وامتثاله لمراسيم المسرحية التراجيدية التأريخية. طلب أطفال موكب الصغار أن يحل الحصان بينهم فيطعموه ويؤدي ما كان يؤديه في موكب الكبار بينهم. دخل الحصان موكبهم ورددوا التعزية وهو في قلب المستطيل وعديّسة ينظر متحسراً.

«لماذا لم تطلب منهم الانضمام إليهم بهدوء.. بهدوء.. كل أمورك ستمشي بالهدوء».

أجابني وهو يغط في نوبة بكاء جارفة: لا يقبلون بي، يخافون من شكلي ومن لوني، يقولون لي أنت أصفر وليس في وجهك رموش.

وماذا صنعت يا عديّسة، يكمل عديّسة سرد عمليته البطولية، هو



يتحدث عنها كما لو كانت كذلك، ينقطع البكاء ويكمل: حينما اطمئن موكب الكبار بأن الصبية لا يهابون الحصان والحصان لا يؤذيهم، هبطت من الشجرة وقبضت على لجام الحصان وركضت به، كانت الطريق سالكة والكبار في شغل عنا، ضربني بعض الصبية وتحملت، كنت واثقاً بأنهم سيوقفونني ويستعيدون الحصان، لكن المفاجأة حدثت. طاعني الحصان وصفع الأرض بقوائمه وهرب معي. فتحنا أمواج الحشود بسهولة، كان الناس يقبلونني ويقرصون خدودي، ملابسي اليومية العادية كانت مثيرة لأشجانهم ومناسبة في ذلك اليوم. فسحوا لي ولحصاني مكاناً في زحامهم وجعلوني أمر بهدوء بعد أن ابتعدت عن موكب الصغار. إنه هنا، الحصان الأبيض هنا. لا أحد يعرف بأن الحصان ملكي وأنا أداريه وأسقيه وأطعمه حتى اليوم.

بعد وجبة الغداء تظاهرت بأني أحتسي استكانة الشاي بروية وتدبر مع عديّسة وعائلته، كنت أضاجع الاستكانة ولا ألثمها، أمثل دور المتأني والضيف الودود. همست لعديّسة وعرف مقصودي. قادني إلى الحصان صاحب الدناديش والكراكيش والأجراس. ركضنا معاً خارج مقبرة الحمير. عبرنا تلة كبيرة ونهيراً صغيراً يتفرع بخلسة من دجلة. وصلنا مكمن عديّسة وثاني أسراره بعد صندوق التحاليل الطبية.

كوخ صغير من السعف يتدلى من بابه لجام ينتهي إلى كتلة كونكريتية ضخمة ومثلمة. هذا هو، حصان عديّسة الأبيض الرشيق، فتي وجامح ويحب صاحبه ويقبله ويرزم إذا شاهد الغرباء، «إنه يحبك أيضاً، في العادة يستغرب الغرباء لكنه لم يفعل ذلك معك».

حينما عدنا إلى مقبرة الحمير رأيت سترتي مرمية على التراب مع



بعض أوراقي وحزام بنطلوني الذي أهمله دائماً. كانت الجدة وباقي عائلتها يقفون على السور وعيونهم يتطاير منها القلق والحنق والضغينة.

فهمت بأنهم يريدون من الرحيل عنهم والابتعاد عن ابنهم. كنت متلهفاً لمفارقتهم فعلاً والعودة إلى الكائن الذي كنته قبل مقبرة الحمير، حتى لو كان أكثم كلافة.

أول شيء فعلته بعد عودتي إلى عمارة راجحة هو تحرير رسالة إلى لجنة الحيوانات: مرحباً، *لقد عثرت على حصان ابن الرئيس المقرب، إنه بحالة صحية جيدة، نظيف وحوافره سليمة ونسبة العلق البكتيري شبه منعدمة، يملكه ولد صغير ويحميه ويوفر له المأكل والمسكن، لا داعي للقلق فالحصان بخير. لا مسوغَ لمتابعة الأمر أكثر من ذلك، أنا متأكد من أهلية الولد لرعاية الحصان، فتشوا عن حيوانات أخرى..عني مثلاً. هذا الحصان في أفضل حال.*

أكثم



(١٣)

الناس ينظرون. يصوّبون رؤوسهم نحوي. الشارع يغص بالسيارات ويتلعثم بينما يحدق السائقون بوجهي. عثرت امرأة عجوز بدينة. ابتلع نعلها طرف عباءتها فوقعت على الأرض وهي تنظر إلي.

في طريقي إلى بيت جميل يحترمني. مشيت بضعة أمتار قبل أن أتوقف في الشارع مومئاً للباصات. تركت يدي تلاعب الهواء بعد أن حبست نفسي في عمارة راجحة شهراً كاملاً. كنت أتابع العالم من التلفاز. أشغله وأمد عنقي داخله وأتفرج على الكائنات من خلاله. لا يشاهدني أحد وأشاهد الجميع. أنا جني الأحلام الحيوانية الذي يرتدي بجامة وفانيلة داخلية مصفرة من الوحشة. حررت عشرات المقالات عن تفسير المنامات. وحضرت لنفسي أكثر من مرة حلماً يظهر فيه أي حيوان أريد. صنعت باختصار حديقة حيوان في رأسي اتنزه فيها متى أشاء.

لماذا يصوّب الجميع عيونهم نحوي. رجّحت في البداية أن المنامات وكثرة التفكر في رؤوس الآخرين جعلتني أهمل رأسي ولا أمشطه. لكني متأكد بأني قضيت ساعة ونصف تحت رأس الدوش وزمناً لا بأس به في تصفيف رأسي وتسريح تلك المويجة السخيفة في قذالتي.

السيارات لا تتوقف لي.



يمطرني الجابي بالقهقهات أو الشتائم وتنحرف السيارات باتجاهي وتستخف بوقفتي. المدينة كلها لا تظهر بوضوح. تصلني صور الأشياء مفلترة ومغشّاة. يأست من فهم الأمر وقررت العودة إلى الشقة وتأخير مشواري إلى بيت جميل. وقبل أن أدخل دربونة فرعية تؤدي إلى العمارة هرباً من عيون الناس مرّ راكب دراجة هواية وصفعني على عنقي. اصطدم بي وركلني ثم نزع شيئاً من وجهي. حينها بدت الصورة تتضح. عادت وجوه الآخرين كما كانت والبنايات بارزة بألوانها الطبيعية. ضحك الناس وأرباب المحال ومجموعة تلميذات بحقائب وردية كبيرة. أنا لذت بالفرار، بل لذت ساتراً وجودي كله تحت ابط الدربونة.

صاح عليّ الدراج الذي حررني من الغشاوة. صرخ بي أن آخذ الشيء الذي خلعه من وجهي. عدت إليه والتقطته وواصلت الهرب.

من حمى الخجل التي عصفت بي لم أدرك ما الذي كان في يدي. صعدت عمارة راجحة واقفلت شقتي علي. في يدي خوذة النحال. نسيتها على رأسي. نمت وأنا ارتديها البارحة. بعد خروجي من الحمام أعدت ارتداءَها. ونسيتها وخرجت إلى الناس.

كنت أجرب أولى مهماتي وأنا أدير طائفتي من النحل. سهوت داخل حلمي الكبير وغفلت عن مظهري. أعجبني المكوث داخل قناع النحال ورؤية الأشياء حولي بواسطته. أردت أن أعوض ما فاتني من التأخير في صناعة أقفاص الطائفة والرفوف والملاعق والحوامل والأقداح. نمت والقناع مثبتٌ برأسي وخرجت إلى طوائف الناس. أحمي نفسي من إبر النحل الذي لم أشتره بعد. هيأت كل شيء. المهد قبل الولد. إلا النحل.



صرت مسخرة الموسم في عيون طوائف الناس وأنا ارتدي لباس طائفتي.

تخلصت من الخوذة وعدت إلى الشارع. سلكت طريقاً طويلة متحاشياً الوجوه التي تضاحكت علي. توقف أمامي باص فارغ إلا من سائقه.

جلست خلف السائق وأبعدت وجهي عن مرآته. تأكدت بأنه لا يبصرني في المرآة وأرخيت رأسي على كفي. نجح في إيقاظي وهو يقول:

«هل تقبل يا عمو»، لاحظ بأني كبير بما يكفي لشطب عمو. «هل تقبل يا بعد خشمي أن يشتمونا».

انتبهت إلى صوت المذياع ويده التي امتدت لرفع الصوت. لا شيء غير نشرة أخبار اعتيادية.

يكمل السائق الكهل الذي يعتمر قبعة بيسبول متسخة.

«يشتموننا صبح وليل ومغربية وفجر في الراديو والتلفزيون، شوف شوف اللافتة، شفت؟، يشمونا علني. ظهر المستتر وبان الخافي علينا. اسمع اسمع هاك».

لا يظهر بأنه يحرص على سماع جوابي. السائق الكهل يضبط قبعته ويخفي كل جبينه داخلها ويستمر في الثرثرة والسعال والبصاق واستجوابي من دون جواب.

«البارحة، صعد معي صحفي، لابس باينباغ وحذاء روغان ونظارة فوتوشوب. وقع علي من السماء لكنه دخل من هذا الباب. أوصلته إلى



بيتهم مع كيس كبير من الشتائم ستكفيه الشتاء كله. أولاد القيقة يشتموننا من الصبح ونستيقظ على سبابهم مثل الديكة. أول أمس صعدت معي مذيعة. جلدها محكوك بكاغد جام. تلصف لصف بنت البيقة. سألتها لماذا تشتموننا قالت متى وكيف؟، قلت لها متى وكيف في وجهك احترمي نفسك وانزلي، بشرفك يا خالي أنا رجل بعمر جدها وتقول لي متى وكيف؟، هل ترضى».

سألته إن كان سيدخل في حي الكرامة حيث يسكن جميل يحترمني. أوضح لي وهو متلهف للعودة إلى ثرثرته بأنه سيوصلني أينما أريد.، والشرط هو الاصغاء له وتأمل ما يقوله.

«يسبون ويغلطون ويعيروننا أربعه وعشرين ساعة يا بعد خشمي».

تجرأت وسألته كيف يشتموننا؟، سكتُّ قليلاً ثم قلت له ومتى؟؛ حتى لا أشتمه.

«أي يشتمون، شوف بعينك أنت عايش هنا لو حضرتك مغترب؟، شوف بعينك، تلك لافتة مكتوب عليها عزيزي المواطن. عزيزي المواطن؟!، وتقول لي كيف يشتموننا، البارحة ابن ابني قالوا له في الاصطفاف عزيزي التلميذ، لحظة، اسمعني سأختصرها لك، زوجة ولدي البكر قالوا لها في المستوصف: أختي المواطنة الكريمة!، هل تقبل أن يقال هذا لأختك؟، لن أخرج عن الموضوع يا بعد خشمي، أنا رجل مسن وشعر إبطي أبيض بيوضي مثل قلبك يا بعد رويحتي، تصور بأن يقول لي المذيع في الراديو عزيزي المستمع!. البارحة نزل رجل بعمرك، وقور ومعتّب ويلبس فيصلية، حينما وضع رجله على الأرض



قال لي شكراً أخي، تفضل، شكراً أخوك وشكراً جدك وجد جدك يا قيقة يا بن القيقة. ضاعت الأخلاق والشأنية. لا شأنية بعد اليوم. خذ شأنك وانزل هذا حي الكرامة».

سقطت منه قبعة البيسبول وهو ينحني لي، حيّاني مثل ساحر يختم عرضه. بانت فروة رأسه الرمادية تسيل وتتوسع على صدغيه ورقبته وظهره.

غمرني عادم سيارته بسحابة سوداء كثيفة جعلتني أقرأ بمشقة ما مكتوب على الزجاجة الخلفية: وضعت القناع لأحيا بين الضباع.

الطريق إلى بيت جميل يحترمني معبد بالروث والغبار. تقدمت وأنا أتتبع الخريطة الصغيرة في يدي كما لو كنت أقرأ طالعي. وصلت إلى حيث بابهم وما زال صوت العجوز صاحب قبعة البيسبول يطن في أذني. كانت الدكتورة راجحة قد سلمتني قصاصة ورق مكتوب عليها عنوان جميل يحترمني مع تخطيطات خرقاء. زار العمارة وسأل عني وطرق باب الشقة ولم افتح له. كنت لا أطيق رؤية أحد حتى لو كان لا أحد مثل جميل يحترمني.

عرفت أن هذا بيت جميل من نباح خاكي على السطح. يقولون إن الكلب يميز سيده عن سيده المزيف. يحافظ على علاقته به حتى لو أصبح عدواً له. عندها سيصبح صديقاً عن بعد!.

على دكة الباب يفترش شخص بدين حجره للسوالف واغتياب السابلة وهمز الموجودات والمفقودات في هذه القارة. أراه للمرة الأولى وحدست بأن هذا الرجل هو زغلة. حليلة السيد جميل. عرفتها من



سطوتها على الحيز الذي تشغله في رأس الزقاق، ومن اكتناز جسدها بالأسرار. فالذي يعرف جميل سيعرف كل شيء عن مظهر ذلك الرجل الذي هو زوجته. بل سيعرف ويتظاهر دائماً بأنه لا يعرف. يتغاضى وينسى قصتهما الغريبة.



(١٤)

هنالك يوم في حياة السيدة زغلة دهراب جعلها تدخل التاريخ وتغلق بابه من الداخل وتطل علينا من ثقبه.

مع أن هذا ليس نادراً بالنسبة لطبيب بيطري؛ فكل الثدييات تنظر إلى الثدييات من ثقب باب التاريخ والتاريخ صحراء مفتوحة مزروعة بأبواب بلا جدران. لكن حالة زغلة تختلف قليلاً.

في السنوات الأولى لزواجها من جميل اشتغلت زغلة كمرافقة لمستوصف متنقل يزور القرى الحدودية في الشريط الفاصل بين إيران والعراق. تطبب الجرحى بخبرتها المكتسبة من مرافقة المسعفين خلال الحرب الإيرانية العراقية.

كنت ممن يقرأ تلك التقارير في أرشيف المستشفى البيطري. تصلنا تقارير لها صلة بالمحميات الحيوانية وملاحظات الجيش التي ترتبط بتلك القرى. كل رسالة تتصل بالأمور الحيوانية ترسل قيادة الجيش نسخة منها لنا. بعد ترحيل الناس من بلدة نفط خانة استوطنت الذئاب أحياء البلدة وبيوتها المهجورة فحرر أحد الضباط رسالة بذلك ووصلت لدائرتنا نسخة منها وظلت مخزونة في ظلام الارشيف تنتظر فضولياً مثلي يعيد مطالعتها بعد سنوات. كان اسم زغلة يثير انتباهي من دون أن أعرف بأن المدعوة زغلة هي زوجة جميل المعاون في صالة تشريح الحيوانات.



سمعت مرة أحد أساتذتي يتحدث عن تلك الذئاب التي استعمرت المدينة وعن رزمة مكاتبات رسمية عن كيفية طردها. الذئاب التي احتلت القرية بعد طرد السكان وتهجيرهم خارج الخريطة؛ سيطرت على كل شيء وأصبح الليل المحيط بالقرية يضج بالعواء. العواء يتسلل ويغزو القرى المجاورة ويخيف مشاة الجنود من الجبهتين.

زغلة كانت واحدة من المسعفين والمسعفات داخل مركبة طبية توقفت للاستراحة في أول الفجر. هاجمتهم الذئاب وفرقتهم وجعلتهم يهربون إلى لا أين ولا حيث.

وجدت نفسها في مطبخ أحد البيوت وحسب روايتها الشفهية التي تناقلها الأطباء والجنود، فقد قضت مع الذئاب سبعة وستين يوماً. حرستها الذئاب واقتاتت على ما تركته العوائل المطرودة في ثلاجاتها ورفوفها. فرّت زغلة من قرية الذئاب لتمشي مرة أخرى إلى لا أين. ولا أين هذه قرية أخرى يقصدها المذعورون بلا اتجاهات ولا بوصلة محددة. ساقها طريق اللا أين إلى أن تصبح أسيرة وتدخل من دون أن تدري إلى قرية إيرانية. زغلة دخلت القرية والتأريخ كأول أسير أنثى في تاريخ تلك الحرب.

رواية زغلة منقولة بواسطة أفواه خائفة مجردة من أسنان تمضغ الحكاية جيداً وتحولها إلى حكاية معقولة. قد تنقل الأفواه حكاية من دون تقطيعها وتجهيزها وخلطها بلعاب الأدلة فلا تبدو محبوكة. لا تظهر كقصة واقعية يصدقها العقل. لكنني وفي كل الأحوال لا أريد أن أصدق ما يحدث. لم أكن مستعداً للحقيقة. أخاف على فمي من ترديدها واستعمالها. أمسحها حالما تصل وأتظاهر بأني بلا فم وأؤمن بذلك مثلما أؤمن بأني بلا ذيل.



حتى الآن لا يشكل موضوع زغلة أي إحراج لزوجها وأهلها. ما حدث بعد ذلك قلب رأس جميل وجعله تافهاً مثلما هو عليه الآن. الذي ينقلب رأسه لا تبقى أعضاؤه الأخرى على حالها. تنقلب معه أو تضطرب في أحسن الظروف. لماذا أصبح جميل بليداً وشغوفاً بالأعمال التي لا تصنع أثراً؟ لأن زغلة أصبحت زغل. فلقد قررت قيادة الجيش تغيير اسمها إلى زغل واعتبارها ذكراً حتى لا تستخدم قصتها في تثبيط الروح المعنوية الرسمية والشيمة البطولية عند المقاتلين الأشاوس.

زوجته غائبة في الأسر وجرى تحويل بياناتها الرسمية، موظف مأمور أجرى جراحة إملائية لتغيير جنسها في خانة الجنس في شهادة الأحوال المدنية. واستتبع ذلك تغييرات جذرية في سجلات عائلتها. أما جميل فقد ظلت حالته غائمة وغير معرّفة لشهور طوال.

لأن موقفه القانوني غير مفهوم. وهو مخير بين اخفاء هوية الأحوال وعدم ابرازها في المعاملات الرسمية وبين الخضوع لعملية تحويل جنسي وبسرية تامّة حتى لا تنتشر القصة وتشتهر قصة الجندية الأسيرة. عندها لا يتخلى جميل عن ذكورته فحسب بل يخسر ذكره وذكر أهله ويصبح نسياً منسيا.

انسحب جميل من ثلاثة أرباع حياته المعلنة وراح يتدبر بعض الأشغال البسيطة التي لا تجلب العين والأثر. وكان خلال ذلك يقيم لأيام عدة في مستشفانا. دخلت المستشفى وجميل مغمور الحال والهوية الكاملة، ولعلهم جلبوه هنا كي يكون تحت الأنظار. وخرجت من المستشفى وجميل لم ينطق حرفاً واحداً عن قصته تلك ولم يتطرق أحد لمصير زوجته حتى خلال الاعلانات الرسمية والبرامج المتلفزة عن عودة الأسرى.



أنا نفسي كنت لا أتذكر تلك القصة غير الواضحة عن زوجة جميل. لا أحب التأكد منها ولم يكن الأمر يشغلني كثيراً.

تأملت كل ذلك وأنا أقف حذاء بابهم. أحدّق في الرجل البدين الأمرد الذي يجلس على دكة الباب. لا ينظر إلي ويتحاشى وضع وجهي في مرمى بصره. الرجال يفعلون ذلك عادة لكن الرجال الذين كانوا نساءً يبالغون في ذلك.

أعرف بأنها زغلة مهما تصنعت كزغل.

سلمت عليه وسألته عن جميل.

«جميل موجود، تفضل إلى الصالة. تفضل يا أخوية ولا تستحي البيت بيتك. قال لي جميل بأنك ستأتي. كنا بانتظارك أربع جمعات. احذر. على مهلك. لا تتزحلق، هذه الدماء ستبقى هنا حتى الليل».

عبرت عتبة البيت ثم إلى باحته. بقعة دماء كبيرة تتربع وتخطف انظار الغادي والرائح في الزقاق. طبقت أوامر مضيفي غريب الشكل والصوت وخطوت على الدم اللزج وانزلقت فردة حذائي من رجلي. تركتها ومشيت على أطراف أصابعي. تركت أثراً مثل آثار ممشى القطة وأنا أضع خطواتي على القطيفة الزرقاء المفروشة في أرضية الصالة الصغيرة.

سارع ذلك الكائن غير محدد الجنس إلى مسح بقع الدم بكعب رجله الغليظ.

جلست وتنفست وكتمت زفيري بانتظار جميل وتفسيراته لما أرى.

في الحقيقة كنت مشتاقاً لرؤية خاكي أكثر من جميل. اندثر نباح خاكي التشريفي خلف صوت ذلك الكائن. تركني وذهب يحضّر شيئاً لي كضيف.



ما لن يحكيه جميل لي هو سر هذا الكائن. لن يقول لي إن زغل هذا هو زغلة. لن يقول لي إن هذه زوجته وليس أخاه. ولن أقول له إنّ زغل لا يشبهك.

لن يقول لي جميل إنه انتظر عودة زوجته بعد سقوط تمثال الرئيس وتغير الأحوال. لن يذكر بأنه لازم الحدود وطاف على بيوت الأسرى العائدين بحثاً عن زوجته وأخبارها.

لن يقول لي إنه عرف بموعد عودتها من رسالة مكتوبة على سيلفان سجائر، قالت له إنها ستكون في ميعاد كذا وعند المعبر الحدودي كذا. لن يقول لي إنه سأل عنها السائق الأحوازي بعد أن نفض كل ركابه العائدين من الأسر؛ ولم يلاحظ جميل زوجته زغلة.

أجابه السائق بأن لا نساء ركبن معه.

انتظر حتى نفضت كل السيارات ركابها من العائدين إلى الوطن بعد فراق. ثم حط على عينيه رجل يتجه نحوه. يسعى إليه حاملاً حقيبة جلدية ويعض لفة أوراق مطوية قابضاً عليها باسنانه.

كانت زغلة في شكلها الجديد وقوامها الرجولي. قررت أن لا تخيّب ظن الحرب وتصبح رجلاً كما شاءت. فلا مهرب ممّا تخطه الجبهات من القدر.

سكت جميل عن كل ذلك وتشجع للبوح بالنكتة التالية بعد أن دخل محتضناً خاكي:

«هذا أخي زغلة. كان اسمه زغلة لكنه أصيب بالحصبة. فغير أبي اسمه إلى زغل. وعادة أهلي هي تغيير اسماء اطفالهم المرضى لكي يدوخ المرض ويضل طريقه إليهم ويتماثلوا للشفاء».



لم اسأل بعد ذلك جميل عن سر تلك البقعة الحمراء في باحة البيت. انشغلت بخاكي وانشغل بي. وتركت الزوجين الأخوين، جميل وزغل، يتبادلان شتيمة غير منطوقة.

قال لي خاكي بأنه يعيش نكبة عمره.

صار نادماً على الخروج من فرج الرئيس. الحياة في الخارج صعبة والنباح داخل جوف التمثال مؤنس ومريح.

كانت الدنيا هناك واسعة لكنها صغيرة. الحياة اليوم صغيرة رغم وسعها. لماذا تركتني أعيش مع هذا المخبول وهذه المسترجلة. لماذا أخرجتني من الظلمة وأنت تعرف بأن الظلام عندي كالماء بالنسبة لسمكة.

لماذا ساعدتني في الخروج وأهملتني. بأي ذنب اطلقتني إلى النور وأنت تعرف بأني كائن ليلي. ما الذي فكرت به وأنت تكشفني للنهار وأنت تدري بأن جلدي لا يقاوم الشمس. أنا صاحبك. لماذا تخليت عن صحبتي وجعلتني صاحب الجميع. أتمنى أن أموت وأتحول إلى شبح كلب ينبح في أحلام الآخرين وكوابيسهم.

قلت له إنّ الكلاب لا تتحدث. صوتك هذا يأتي من شباك الخيال الذي أتركه مفتوحاً. لست وحدك من يكلمني ويكذب علي. رأسي يعج بالحيوانات المتكلمة. لم يعد الأمر مقتصراً على الأحلام. الكلب لا يرتاح في الأحلام. إنه ينبح ويعض أكثر من الواقع. تقول كتبي إنّ الكلب يعني الخطر الوشيك. فتحمل زغل وجميل واسكت.

مدّ لي جميل يده، لم اكن منتبهاً له وأنا أناجي خاكي. ظهرت الورقة التي يحملها أمام عيني. طرحت خاكي وركض خارج الصالة. فهمت أن



الورقة فيها رسالة دبجها جميل إلى الأمم المتحدة وجهات آخرى لتسهيل طلب لجوئه. يستعين فيها بخاكي ويطلب أن يرافقه ويصاحبه إلى بلاد العم سام حيث يتاح لخاكي ممارسة هواياته من دون أذية من الناس. استند جميل على هذا العذر بعد نفاد كل معاذيره. أما زغل وزغلة التي تطل من صوته فلبث بيننا يكتم ضحكة أنثوية موقوتة. لا يبدو بأنه تدرب بعد على الضحكات الرجولية المجلجلة.

«دكتور هذا الكلب يؤذينا. الجيران عرفوا حالته وانفضحنا. طول عمرنا نصون أعمارنا من سوء السمعة. هذا أخي جميل خجول يمشي مثل من يبحث عن سرّته في التراب. لا يرفع رأسه عن الأرض. يروح بطريقه ويعود بطريقه مثل ماكنة الخياطة. سولته وديدنه الخارج. يريد أن يقفز من المقلاة ويهاجر. ليتك تساعده وتعلمه الطريق. أنا هنا سأظل وحدي. أشوف قسمتي ونصيبي. العمر أخذنا ولا ولد ولا تلد».

يتحدث زغل وتنط زغلة من فمه بين كلمة وكلمة. أبدي تحسراً واستعداداً عاطفياً لمساعدته. ولا يكتفي زغل بذلك، يستمر في تدريباته على الصوت الذكوري ويكمل حديثه.

«طلبنا رؤيتك حتى تعاون جميل وتعاونّي. أعذرنا على الخربطة في البيت. نحن نجري أشياء تردّ اعتبارنا أمام الناس. نحن نكمن لكل زبائن خاكي ونحبسهم في الداخل. نعطشهم وندفع لهم بطاسة فيها مخدر. مخدر مضبوط حضّره أخي جميل».

تقول أخي جميل وتعبث بخصلة شعر ضالة من سوالفها.

«الكلب يشربه ويغمى عليه. يفارقه الشعور وينقطع عن الدنيا. يسلمنا جسده كله. أسحله أنا إلى البيتونة. هناك في السطح. يتجمع كل زبائن



خاكي أصحاب الرذيلة. مخدرون وشهواتهم رماد. أرتدي قناعاً من الورق وأجلب مقصّي الكبير. أفرق بين ساقي كل كلب. أعصر خصيتيه بأصابعي. أفركهما وأهرسهما. أقصهما بالمقص وأضعهما في المزبلة. أخصينا عشرة كلاب حتى الآن. آخر كلب كان ضخماً يشبه كلاب التفتيش عند الأجانب. ناديت على جميل حتى يتعلم اخصاء الكلاب.خوش شغلة وتفيده. صنعة وسمعة ها ها ها. انزلت الكلب إلى باحة البيت وشرحت لأخي جميل الكيفية. أخي جميل قلبه رهيف ويخاف من خيال مخياله. استيقظ الكلب بينما جميل يعصر خصيته. أنا ضغطت على رأس الكلب ثم طعنته. غرزت السكين في ظهره ومات قبل أن يتم أخي جميل المهمة. أخي جميل لا يصلح لهذه الأمور. كان أبي يقول لي بأني عمود البيت. أنا المخيّط والهاون والجرس. وأمور العائلة الحساسة تسند إلي. ومسألة مثل هذه أنا كفيل بحلها. أي شيء يتعلق بسمعتنا أنا له وهي لي، أقصد هو لها، عفواً أنا له».

طل خاكي بذيله من وراء الباب. كأنه كان يصغي إلى الرواية الرسمية لمصارع عشاقه. يسجل ويعيد الذكريات الأليمة ومقاتل زغلة للفحولات المحيطة به. تتابع زغلة الحكاية وتروي كيف أن هذه الطريقة ناجعة جداً. أرجل الكلاب خفّت عن التردد على البيت. بعد تخليص الكلاب القوية من خصياتها تجبن الكلاب الأخرى، المستطرقة والهاوية التي لا تتحلى بالجدية؛ وتكف عن الدخول إلى بيت جميل وأخيه ولا تنصاع لمغازلات خاكي وتحرشاته.

هكذا فقد خاكي آخر آماله في هذا المنزل. وانطفأت في روحه شمعة السلام والحماية. شعر بالخطر وانسداد السماء على باقي أيامه.



قلبت رسالة جميل إلى الذوات الذين يهمهم أمره حسب ما كتب. نصحته بأن يعيد صياغتها ويشدد على أحوال خاكي. ويقلص من سيرته ويختصرها أكثر. لا أعرف إن كنت جاداً وقتها أو متماهياً مع أوهام جميل وحماقاته. لكنني نصحته بذلك فعلاً. طلبت من زغلة وزغل معاً أن ينظفا البيت من الدماء وأن يوقفا عمليات الاخصاء.

طلبت منها أن يعيشا مع جميل في كل الظروف. أن يفكرا في الانتقال إلى حي آخر. لمحت لهما بأني أعرف المستور جيداً من دون الخوض في التفاصيل.

انتقلوا إلى حي جديد ورباط مقدس جديد. افتحوا هذا وشدّوا ذاك. تعرفوا على بعض من جديد.

همست بتلك الكلمات غير عابئ بالعواقب. أما زغلة فضاعفت من ملامحها الرجولية. وأما جميل فقد انسدح تحتي على القطيفة وتظاهر برغبة عارمة للنوم.

قلت له إني ساسعى لمساعدته وتهذيب رسالته شريطة أن يعتني بخاكي. وأخبرت زغلة بأنني قد أجد لها عملاً. سأبحث لها عن وظيفة أنا الذي بلا شغل ولا مشغلة!.



(١٥)

مكتوب على مؤخرة عربة: لا تشتكي ألم السنين إلى واحد. تكملة الجملة ممسوحة. ذيل الحمار يرقص أمام العربة. يطير ويحط ويشارك في حذف الكلمة. يعمل عمل الممحاة الدائبة في محو كلمات هذه الظهيرة. حينما انعطف الحمار بعربته نحو جادة محاذية لعمارة راجحة، تعرفت عليه، كان مرقوماً بالعدد واحد. هذا هو بشحمه ولحمه الحمار الوحشي الأخرس.

ذلك الحمار الوحشي نزيل دائم في مشفانا. يعاني من السكوت المزمن كواحد من أعراض القمل. لم يكن السكوت مؤلماً بالنسبة له ولا لزوار حديقة الحيوانات. الداء وآلامه هو ذلك النوع الشرس من حشرة القمل. يأكل جلده ويمتص دمه ويتغلغل عميقاً في عضلات أطرافه من ناحية المفصل فتنشل حركته من دون أن يشكو ويتجرع الألم بصمت. سميته الأخرس لأنني اكتشفت صمته من بين آلاف الأعراض المزعجة التي يسببها ذلك الداء. وكنت أظن بأن الصمت هو أشدها.

لأنه عقوبة تعني عدم التصريح بأي شيء. فيما عرفت بأنه نعمة بالنسبة له، ولولا الصمت لتدهورت حالة الحمار واحد.

الصياح من الألم يزيد المواجع على واحد فابتكر وعيه الحماري طريقة لتخفيف الألم بالسكوت عنه وتغاضيه. فانقطع لسانه عن النطق.



واضح أيضاً بأن العربنجي الذي صار من نصيبه؛ فلح في طلاء الخطوط السود من جسده والاحتفاظ بالخطوط البيض. ولعله يواظب على طلاء الأسود كل فترة بعد تساقط الصبغ.

يحلق سواد جلده مثل لحية كل شهر أو شهرين. ولعله يبدل لونه فيطلي الأبيض بالأسود ويتحول الحمار إلى حمار أسود. ويعود أبيضاً حسب حالة صاحبه المزاجية.

كل ذلك ولم ينجح في اخفاء اسم الحمار واحد لأن الاسم المطبوع على جلده هو لسعة ختم حديدي من مستشفى البيطرة الرئاسي.

بعد وصولي إلى شقتي عائداً من بيت جميل وزغل؛ حررت بريداً ألكترونياً إلى لجنة الحيوانات وبلغتهم بمصير الحمار الوحشي.

ولعلها رسالتي قبل الأخيرة لهم. فبعد ذلك بيومين عدت من تطوافي اليومي على المعاسل وبيوت النحالين باحثاً عن حاجات ضرورية لطائفتي الجميلة.

وقفت أمام شقتي مشدوهاً بالمنظر.

إنه حكم مرة أخرى.

يجلس القرفصاء عاقداً ذراعيه على قنفذ!. يحتضنه وينامان معاً. يغطان في عالم واحد. حلم طويل متصل مفتوح.

فتحت الباب فسقط رأس حكم على البلاطة واستيقظا معا. دخل خلفي واتخذ جلسته على قنفتي. فهمت من دون كلام منه أن القنفذ يرجع لمستشفى البيطرة الرئاسية. أكدت له ذلك أيضاً. وأخذت صوراً للقنفذ في حجر حكم وحالما التفت وجدته قد اختفى مع الحيوان الآبق. ليعود بعد دقائق وقد تخلص منه بوسيلة لا أعرفها.



كتبت ذلك في رسالة جديدة إلى لجنة الحيوانات. وذكرت لهم أهمية القنفذ في مسيرتي العلمية وخدمتي في مستشفى البيطرة الخاص المنحل. لقد زارنا ذات يوم أحد الأدباء الموكلين بكتابات وصايا وخطب وشذرات الرئيس. كان مكلفاً رئاسياً بكتابة جملة ارشادية يرد فيها ذكر القنفذ. طلب منّا أن نجمعه بالقنفذ ونتركه معه نصف نهار.

لم أتابعه بشكل دقيق وكنا جميعاً نخشى الشعراء الذين يزورون الحيوانات ولا نتلفت أو نتنفس بحضورهم بشكل طبيعي. أما الحكمة التي كتبها فقد سمعتها من أحد الاطباء بعد أسابيع. قرأها لي وهو يحاول حفظها من الجريدة:

لا تقترب من القنفذ ولا تبتعد عنه، الابتعاد عن القنفذ وعدم احترام آرائه يعني أن تطالك أشواكه المؤذية. والاقتراب منه يجعله يبكي مشتكياً من جلدك الرقيق لأنه آلم أشواكه ومعتقداته. سيتظلم ويحتج. القنفذ يجوز له الاحتجاج إذا لمس أحد شوكته. ويجوز له أن يطلقها عليك أيضاً!.

أكتب البريد الألكتروني وحكم يطالعني ويسألني بعينيه عن مكان ملائم للنوم. في تلك اللحظة عرفت بأن حكم سيصاحبني لفترة أطول مما أتوقع.

كنت متردداً من دخولاته لعمارة راجحة من الدكتورة راجحة إذا ما شاهدته. وما حدث نقض توقعاتي. لقد أحبته راجحة التي لم تكن تحب أحداً. حينما يختفي من شقتي يظهر في شقة راجحة في الدور الأخير. لم تكن تخشى من رؤية الناس لحكم يدخل شقتها ولم تحسب حساباً لمنظرهما كثنائي أمام عيون أهل الظرف والسخرية من سكّان العمارة.



ساعدني كل ذلك للتفكير بتطوير طائفتي الجميلة واعلانها للمقربين مني. راجحة وحكم وكل من أعرفه. بل تماديت أكثر وأجريت بعض الاتصالات ودبجت الايميلات.

أول رد فعل وصلني هو من ذلك الدكتور الذي سجنه الأمريكان معي في قضية عظام الحيوانات. صاحب الإذاعة الذي عرض علي العمل في إذاعته. كرر الاتصال بي وألح طالباً حضوري إلى الأستوديو. بصراحة، أنا هاتفته أولاً.. فاتحته بتوفير فرصة عمل لشخصين أثق بهما، هكذا قلت له.. أثق بذكاوتهما وخبرتهما.. لقد دربتهما بنفسي!.

أظن بأن هذه كانت أولى لحظات إعلاني لطائفتي.



(١٦)

إذاعة المستشار من بغداد

تقدم

برنامج حوار مع مكتشف

سادتي وسيداتي المستمعين، طبتم وسعدتم ووفقكم الله لكل خير وفضيلة وسلام. نلتقي على الود والأمان في ربوع وطننا الحبيب اسبوعياً؛ مع حلقة من برنامجكم *حوار مع مكتشف*. نستعرض معاً أحوال العلماء والمبدعين والمخترعين في بلادنا. نحاورهم ونستقي من وحي تجاربهم وعصارة أفهامهم.

معنا هذا الأسبوع الأستاذ الخبير والدكتور الهمام المشهور بعلمه وفضله وسعة باله وجليل أياديه في مضمار الطب البيطري السيد أكثم رائد كلافة.

أهلاً وسهلاً دكتور أكثم.

أكثم: أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم أنتم.

المذيعة: بادئ ذي بدء يطيب لنا أن نسأل نيابة عن مستمعينا الأفاضل، من هو أكثم كلافة؟

أكثم: طبيب بيطري عام.



المذيعة: حدثنا قليلاً عن نشأتك وطفولتك.

أكثم: ولدت في حي شعبي من أب ضابط وأم معلمة. توفيت أمي وأنا في المدرسة المتوسطة وتوفي أبي بعد صدور قرار تعييني في مستشفى بيطري باسبوع. تدربت لمدة طويلة في أحدى المستشفيات البيطرية وتعرفت على الكثير من مشاكل الحيوان الصحية وأمراضه وزاولت بيدي عمليات جراحية عديدة. بعد أحداث العام ٢٠٠٣ فقدت مهنتي وحاولت الاستمرار باحثاً عن مهنة مناسبة لي. افتقدت حيواناتي واشتقت لها. لم أجد ما يرضيني بعد وأنا منزعج بسبب ذلك.

المذيعة: لماذا اخترت ميدان الطب البيطري؟

أكثم: أنا لم اخترع بصراحة. وجدت نفسي مقبولاً في تلك الكلية بحسب انظمة القبول الرسمية في ذلك العهد. لكنني أحببت البيطرة بعد ذلك وعشقتها، منذ طفولتي وأنا أحب تدليل الحيوانات والحنو عليها. تأثرت كثيراً بكتاب كليلة ودمنة للفيلسوف الهندي بيدبا. عشت معه أيام طفولتي فإذا به يسيطر على فتوتي وصباي ويظل نديمي وصاحبي في الشباب.

المذيعة: ما معنى أن تصنع طائفة خاصة بك؟

أكثم: عفواً، لحظة، دقيقة، قلتِ إني...، أرجوكِ..، ثانية، من فضلك.

المذيعة: معنى أن تكون لديك طائفتك وحدك. كيف حدث ذلك وما علاقة الأمر بتخصصك؟

أكثم: في الحقيقة هي طائفة نحل. أنا أجمع كل شيء يخص ذلك



الاكتشاف الجديد منذ شهور. ستسمعين عن ذلك قريباً، أظنّ أن العالم كله سينشغل بذلك ويتحدث فيه.

هذه طائفة لصنف منتقى ومدروس من عاملات النحل ومليكاتهم ودبابيرهم. يمكنها أن تقدم لنا أطناناً من العسل في ساعات محدودة. سنجني كمية خرافية من العسل بل أضعاف ما نحصل عليه في المناحل العادية.

المذيعة: هذا فقط؟

أكثم: لا طبعاً.

المذيعة: وماذا بعد؟

أكثم: ماذا بعد ماذا؟

المذيعة: طائفة للعسل ليس إلاّ؟!

أكثم: هذا كل شيء.

المذيعة: هذا كل شيء؟

أكثم: اختار طبعاً نوعاً من النحل كيّف نفسه للعيش بجوار الأنهار. يسمونه باسم النهر نفسه. من ناحيتي اخترت نحلة دجلة. وهذا صنف قديم رافق النهر وانطبعت حياته به. يعرف كل أسرار دجلة ودجلة تعرف أسراره.

المذيعة: ماذا يعرف هذا النحل عن دجلة؟

أكثم: هذا موضوع طويل، إذا سمح وقتكم لي وتركتم لي اسماعكم قليلاً... مرت على دجلة مئات الطوائف. هو النهر الذي لا يمكن السباحة فيه أكثر من مرة كما يقال عن أي نهر. لأن كل دقائقه وصفاته



ونسب مكوناته تتغير. النحل الذي يعيش بجواره مستجيب أكثر للتغيرات الجينية الطارئة عليه. غير متمسك بأسلافه وصفاتهم. هذا مع بضعة صفات عضوية أخر تجعل من هذا الصنف إذا ما أجريت عليه تجاربي.. فتحاً عظيماً في عالم النحل والملل، النحل عفواً.

المذيعة: هل هناك من جرب استخدام دجلة في أبحاث مثل هذه غير حضرتكم يا دكتور؟

أكثم: نعم هناك، هنالك أبحاث فورمولوجية مزجت بين علم الجريان النهري وعلم النفس التحليلي، لا تستغربي ذلك. هنالك عرّاف وهو أحد أجدادي في القرن السابع عشر، كان يفتح الفال بواسطة النهر.

المذيعة: ممكن أن توضح أكثر دكتور؟

أكثم: هذه كانت عادات سرية أخذ جدي بعضها من المخطوطات القديمة. وقد يكون جدك مثلاً استخدمها يوماً ما وهو يمر على دجلة. هناك الكثير من عادات فتح الفأل المندثرة والتي لم نعد نسمع عنها. يقف العراف على حافة النهر وتأتي المحتارة وطالبة المراد وتجلس بوضعية التشهد في الصلاة، تمد عنقها لينعكس وجهها على صفحة الماء. ما يفعله العرّاف هو قراءة صورة وجهها المتماوجة في النهر.

المذيعة: هذا شيء مثير ولم اسمع عنه بصراحة.

أكثم: هناك الكثير عن أشياء غريبة تسكن النهر وليس ذلك النحل فحسب.

المذيعة: متى ينتهي مشروعك ويرى النور؟

أكثم: أظنني سأنتهي منه في غضون أسبوع.



المذيعة: ما الذي ننتظره بالضبط دكتور؟

أكثم: فرقة خاصة من النحل تتوالد بكثافة وتمنحنا مقاديراً هائلة من العسل كما انها قد تساهم في تصحيح مناخنا الذي تدهور وتؤدي إلى زيادة الرقعة الخضراء، تعرفين طبعاً أن النحل يساعد في اصلاح اختلالات كثيرة في الكون.

المذيعة: دكتور أكثم.. كيف رأيت تجاوب الأكاديميات المحلية والعالمية معك؟

أكثم: بعثت عشرات الرسائل والملخصات لفكرتي لعدة جامعات في أمريكا وروسيا وكندا، بعض الأساتذة أظهروا تعاوناً وترحيباً بطائفتي. لكنه تعاون بسيط لا يساعدني في شيء، لم استلم رداً على قدر مفيد من الجدية. وكل ذلك لن يثبط عزيمتي؛ أنا متأكد أنهم سيغيروا نظرتهم عن خطة طائفتي إذا اطلقتها ورأت النور.

المذيعة: هذا محبط.. أليس كذلك؟

أكثم: نعم.. ليس هناك موجب للقلق، أنا في كل مشاغلي استند على الاحباط. اشرب عصير الاحباط اكثر من الشاي كل يوم. طعمه حامض لكنه مسكر عجيب.. ههههه.

مطعم الكروان العائلي، يرحب بكم، مطعم يسحرك بأجوائه الفنية والهادئة اشهى الماكولات الباردة والساخنة والبن العربي، خدمة ممتازة، أجمل الفقرات المنوعة يوميا، شارع الوتد هاتف....

عدنا لكم أحبتي المستمعين والدكتور أكثم، طبيب بيطري ومكتشف لطائفة خاصة من النحل.



أهلاً بك مجدداً دكتور، برأيك كيف يمكن لنحلة أن تعرف بأنها تنتمي لطائفتك وتنضم إليك؟

أكثم: طيب.. هذا سؤال جميل، في البداية أنا احتاج لوقت طويل حتى أزرع هذا الانتماء في نفوس النحل لو صحت هذه العبارة. وفي كل الأحوال سوف لن ترى النحلة وتسمع بطائفة غير طائفتها، لن يكون هناك مجال للتعارف والاختلاف وفهم معنى الطائفة الأخرى. لذلك، كل نحلة لن تحسن التعرف على الطائفة الأخرى، أنا في الواقع اتعامل في البداية مع بيوض ونحل جديد لم يسمع بغيره، وسيجد نفسه داخل طائفتي منذ بداية حياته ولن يخرج منها.

المذيعة: في ختام اللقاء اتمنى لك مشروعاً موفقاً. ونشكرك على وجودك معنا في الحلقة.

أكثم: أشكركم وتحاياي العطرة بشذى الجمار والقرنفل والجمبذ لكل مستمعيكم.

المذيعة: نعم؟ شكراً لك.

قدمت لكم إذاعة المستشار حلقة من برنامج حوار مع مكتشف، اعداد وتقديم زهراء الوحيلي.



(١٧)

مر عام ونصف بعد ذلك الحوار الإذاعي. مرت ريح من الأحداث الصاخبة على شقتي وعلى وجهي وعلى طائفتي. مر سرب من الغاق. مر شريط متصل من الأخبار. مرت عشر رصاصات فوق أذني.

الشيء الذي سجلته ووثقته جيداً هو أحلام البقالين.

كانوا يزورونني بانتظام. يسردون أحلامهم التي تظهر فيها الحيوانات، اعطيهم ما أعرفه فينصرفون.

بعضهم ينفحني بألف دينار!. وبعضهم يطوي خمسة آلاف ويدسها في جيبي. هكذا عشت في تلك الأيام. من كد الحيوانات التي تمثل في أحلام الآخرين. من تعب الكلاب وركضها في الأحلام من مضاجعات القطط ونحيب البوم في الأحلام.

كانت الدكتورة راجحة تراقب كل ذلك بحسد واضح. يشفع لي أني جلبت لها ذلك الشيء الذي اسمه حكم. مهرج بصير يسرح ويمرح في العمارة ويشغلها عن ذكرياتها السيئة وقصص عشقها المتروكة.

اعتدت أن أبدأ الصباح في تلك الفترة بسماع حلم صاحب عربة الشاي أمام العمارة، عربته تفصل بين العمارة وسوق البقالين المسقوف.



يطرق الباب مع استكانة شاي أو استكانتين ويجلس ويسأل عن أحوالي التي سأل عنها قبل أقل من ٢٤ ساعة، ثم يروي حلمه.

في آخر يوم له كان قد روى حلمه مع نحلة. ضحكت في سري وقلت هذه أولى بوادر طائفتي، لقد بدأ أفراد طائفتي الجميلة يظهرون في منامات الآخرين.

كانت النحلة قد دخلت في أذنه ولم تخرج. ركض حتى رمى نفسه في حاوية قمامة عملاقة. استيقظ من الفزع.

قلت له إن القادم خير وحلمه يعني بأنه موعود بالمال والسرور.

بعد نصف ساعة من مغادرته اهتزت العمارة بدوي انفجار قريب جداً. جاء حكم وتبعته الدكتورة راجحة ودخلا الشقة، ثم دخلت سحابة من الدخان الأسود بعدهما. أحكمتُ غلق الباب وأصبحنا نتفحص المكان من النافذة قدر المستطاع.

راجحة خائفة على غير عادتها.

أنا وحكم نقف أمام فتحة مواربة لنافذة الشقة. حكم لا تنفعه عيناه مثلما تنفعه أذناه في مثل هذه الظروف. انتظرت انكشاف الأشياء وزوال الأفق الرمادي أمامنا. لكن صراخ الهاربين والجرحى والناجين يغمم كل شيء ويسد العالم علينا.

مرت الدقائق وتجلطت في ساعة كاملة. تركت راجحة تغسل شعرها وتنحني أمام المغسلة وأذن حكم اليمنى تحدّق في مؤخرتها، ونزلت إلى فوضى الانفجار أسفل العمارة.

اتضح للجميع بأنها سيارة مفخخة. النعل والموازين والثمار



المحروقة في كل مكان. جلست على عتبة البناية عاجزاً عن التقدم بخطوة واحدة.

نزل حكم وشق الدخان والحطام واختفى داخلهما.

أول شيء لمحته بعد عودة الصفاء إلى الأفق هو بائع الشاي. داخل بنصف جسده إلى جوف عربته. ويبدو ابريق الشاي يغلي ويفور في بطنه.

لم يبارحني ذلك المنظر وتيبس في ذاكرتي وصار جزءاً من الرف الذي تتربع عليه الأشجان والمسرات.

احتاج الشارع لخمس ساعات كي يعود لحالته الأولى. نظفوا كل شيء واستأنفوا دورانهم وأنفاسهم المضطربة في المكان. تجمعنا مرة أخرى في شقتي أنا وراجحة وحكم، لا. لم يكن حكم معنا. ظلاله ورائحته فقط.

حكم ما زال يعوم في مسرح الانفجار.

إن ما جرى بعد ذلك سيغيّر أوضاع حكم إلى الأبد. سيضيف شحنة جديدة لشخصيته المشحونة بالإضافات والملحقات الزائدة. حينما نزلت راجحة مع صينية من الخضار والخبز المعجون بالكرفس واللحم مع ثلاثة أقداح من اللبن، سألتني عن حكم وطلبت مني أن أحضره ليأكل معنا، لأنه حسبما تقول لم يدهن زردومه بلقمة منذ الصباح.

بحثت عن حكم وسألت عنه. كل من صار يعرفه أسفل العمارة من البقالين والحمالين والسوقة كانوا يشيرون إلى جهة واحدة، إلى حائط صبغه الانفجار بالرماد، هناك، يجلس حكم وحده.

قبل أن أصل إليه تجمع حوله بعض الصبية. أخذوا يعبثون بشعره



ويصبون عليه فتيت الطابوق. لم يكن يعبأ بهم. إنه مشغول بالجدار. يمرر أصابعه على خد الجدار ويعقد حاجبيه ويحلهما. يمشي مثل كنغر وهو في وضع القرفصاء. يتحرك أمام الجدار وهو على هذه الحال ويثير ضحكات من حوله. ضحك بعد صراخ. المكان يتقبل هذه الانقلابات بكل أريحية.

وصلت لحكم وحاولت أن أجعله يقف لكن يديه مشغولتان بالجدار. لاحظته يلمس الثقوب الصغيرة التي صنعتها عتاد السيارة المخففة. يضغط بسبابته على ثقب ويمسح ثقباً أخر.

يفعل كل ذلك وهو يقلب عيونه الفارغة في السماء.

ملّ من حوله الصبيان فغادروه وتركوني معه. حاولت مرة أخرى أن أجعله يقف، بلا جدوى. ظنّ بعض المارّة بأننا هنا لجمع أشلاء معارفنا، قذفونا بنظرة متعاطفة كسيرة وتابعوا مسيرهم. حكم يمسح الثقوب ويعقد حاجبيه ويحلهما من دون توقف. يمشي واقفاً وجالساً أمام الحائط. لقد مرر كفه على الحائط كله، أستطيع أن أجزم بذلك.

حطت راجحة فوق ذلك المشهد. لكنها لم تبادلني الحيرة نفسها. انحنت على حكم ورفعته من جلسته وساعدته في المشي. تابعتهم وصعدت السلّم خلفهم حتى افترقت عنهم عند باب شقتي، صعدا إلى الأعلى وتركاني. أكلت الخبز وشربت اللبن وحدي.

في الأيام القادمة ستدخل راجحة إلى العمارة وفي كفها كف حكم. تجره إلى الأعلى بعد أن تستقبله في باب العمارة مثل من تستقبل عائداً من جبهة.

يتكرر هذا المشهد كثيراً. تأكدت من ذلك بعد انفجار قريب آخر.



سعى إليه حكم بعد الحطام. ومسح واجهات المحال والحيطان المصابة بثقوب الانفجار. مرر أصابعه على الثقوب وتمتم ببعض الكلمات.

كانت راجحة هي المسؤولة عنه. تقمصت دور الراعي والمدبر لكل شؤونه تدريجياً. قالت لي مرة رغم ضعف تواصلها اللساني معي؛ إنها اشترت لحكم عدة كتب ومجلات بلغة بريل الخاصة بالعميان.

سأعتاد أنا على ذلك حين أدخل وأخرج من شقتي ذاهباً لتجهيز لوازم طائفتي الجميلة. أرى حكم بصحبة راجحة، طبيبة أسنان طفولتي. أو راجحة بصحبة حكم. بعد أن تنتظره عائداً من ميادين الانفجارات اليومية.

لقد علمته كيف يقرأ القصص بلغة بريل، ويبدو بأنه أحب بريل ولغته وراجحة. لم أكن واثقاً بأن حكم قادر على تعلم شيء جديد. أظنه أقفل رأسه وعاش داخله وينتظر انكشاف نفسه على نفسه دون إضافة من أحد. راجحة أخرجته بجنونها وثكالها من زنزانة روحه وعرّفته على عالم لا يريد أن يعرفه.



(١٨)

سألتني الدكتورة راجحة ما هو نوع العطر الذي أضعه. كنت استعد للخروج إلى النهر مع حقيبة حديدية فيها كل ما احتاجه تقريباً لتشييد قفير نحل طائفتي الأول.

استغربت سؤالها. ابتكرت لها اسماً كي أهرب منها ومن حكم. لا أريد أن يتبعني حكم ويتدخل فيما افعله، قلت لها «بيتوفل كالت».

أردت أن أقول طبعاً طائفتي الجميلة بالعربية لكن هذا سيوقعني في فخ السؤال التالي، تنصب عجوز مثلها آلاف الفخاخ للآخرين بحجة إدامة الحوار معها، هذه المرأة لا تريد أن تشعر بالوحدة أبداً.

«لكنك بلا رائحة»، استدارت وصعدت السلم واكملت «أردت أن اكشف كذباتك المستمرة، رش أي شيء على خلقتك عسى أن تجد ابنة حلال مفطورة الدماغ تتزوجك».

تواظب راجحة على الثأر من تلصصي عليها حينما كانت تستضيف أبي في عيادتها، يوم كان لها عيادة وولد. تتلذذ بذلك وتعرف بأني لا أجيب. تدرك جيداً بأني لن أتزوج ولم تشاهدني اصطحب إلى شقتي أي امرأة، ولعلها تحفظني وتحتفظ في جيبها نسخة طبقة الأصل مني. لست فاشلاً في مواضيع البنات إنما أنا فاشل تنضح من مساماتي حروف كلمة



فاشل بغزارة كل دقيقة. راجحة درستني وتدرسني بمهارة لو طلب منها كذلك. ترميني بما شاءت من العبارات المشينة وتعرف بأني لن أجيب. لن أخوض نقاشاً معها وامنحها أجوبة محفورة في رأسها.

البنات بالنسبة لي يقعن في الجزء المحذوف من أحلامي. وجودهن معي يبدد عشقي بنفسي. بل يهز نفسي ويرعبها. لا شيء غير الاستمناء ومضاجعة نفسي لنفسي يجدد ولائي لنفسي وهيامي الكبير بها.

لو انتظرت راجحة لقلت لها بهمس غير مسموع، بمويجات صوتية لا تدركها، أنا يا عشيقة أبي بلا رائحة فعلاً. لم أعد أرش العطر على جثتي البليدة. أكثم بلا رائحة ولا روح. وهذا لو تعلمين من كرامات طائفتي. أولى الكرامات. النحل يا راجحة بلا رائحة لأنه يحط على عشرات الزهور يومياً.

يمتص رحيقها وينعجن بطيبها وعطرها. تنغمس أطرافه بمئات الروائح فيصبح عديم الرائحة.

هل ستنتحرين الآن من فظاظة الرد!. لا طبعاً يا طبيبة الأسنان التي تقلع أزواج الأخريات وأسنانهم.



(١٩)

على حافة النهر لا أحد. وحينما أكون مع عديّسة على النهر سيظل لا أحد على حافة النهر. احتجت لمن يساعدني دون أسئلة فلم أجد غير عديّسة. قصدت مقبرة الحمير بحثاً عنه فوجدته في مكانه كما لو إني قد تركته منذ دقائق.

هو شاطر وهمته عالية. نظّف معداتي واستلم المطرقة وباشر معي صناعة قفص كبير ومصاطب صغيرة. جلب معه حصان ابن الرئيس. لم يقبل أن يغادر مقبرة الحمير دون اصطحاب الحصان. كان يشعر بأنه لن يعود إلى أهله بعد ذلك. قضينا النهار كله معاً وحينما غابت الشمس نام ممسكاً بالمطرقة والمفك. نزل حصان ابن الرئيس إلى النهر. حبسه عديّسة في كوخه الضيق المحاط بأرض مقفرة. تبعت الحصان ونزلت معه.

لهوناً معا في الماء لكنه كان أكثر جرأة في التجديف بقوائمه وأقل مهابة من النزول عميقاً في دجلة. لا أعرف أحواله كاملة ولا مقدرته في السباحة. أعرف أن الخيول تجيد السباحة وتستسهلها في العادة.

تركته ولايظهر من جسمه في الماء إلا رأسه.

ينفث الماء من منخرية وأجراسه تجلل صمت هذه القطعة من النهر.



عدت وخلعت ملابسي وعصرتها ونشرتها على المصطبة. خفت أن يستيقظ عديّسة ويراني عارياً فقررت العودة إلى النهر لحين جفاف ملابسي. دخلت النهر وأنا أتطلع باحثاً عن حصان ابن الرئيس.

غرق الحصان أو انتحر.



(٢٠)

إذا كنتم تطلبون الدقة والتفاصيل كما هي، فاذهبوا رجاءً إلى قضاة المحاكم أو افتحوا التلفاز أو تصفحوا الانترنت. ستحصلوا على نشارة التفاصيل وكراكيب الحقيقة، ركبوها كما شئتم. أنا لا ادعي النقل المضبوط والرؤية الواضحة لكل ما يحدث. وما دمنا قد وصلنا لمصرع الدكتور سركوت فتذكروا تلك الكلمات جيداً.

كان عليّ زيارته بين فترة وأخرى للاطمئنان على صحتي بعد حادث الخروج من معسكر الأمريكان. ألبث عنده لساعات طوال ويسألني ونحن نشرب الشاي عن أحوالي وآخر خبالاتي.

يتكرر المشهد نفسه منذ أن كنت أراجعه وأنا طفل. يجلسني إلى جانبه وهو يفحص مرضاه ويحاورهم ويعنفهم ويؤدبهم بملاعقه وأقلامه أحياناً.

حل الليل وأنا عنده واشتعل الجو بالرصاص والنباح وأصوات الخائفين المهرولين.

«كل هذا طبيعي هذه الأيام، لا تقلق. حتى مريضي صاحب النظارات الشمسية لم يعد يضعها إذا شعر بالخوف، فتصور ذلك».



لا يترك لي مجالاً لاجابته لأنه يغط سريعاً في واحد من صناديقه الورقية. يقلبها ويفتش فيها ويعطيني ظهره.

أخذني الفضول في فتح النافذة لأتفرج على ما يحدث. تقدمت وخطوت خطوتين ويداي مرفوعتان ومصوبتان باتجاه مقبص النافذة. قفز سركوت ودفعني وسقطت أرضاً. حذرني من فتح النافذة لأن النوافذ مصنوعة للتلصص على العالم وليست للفرجة.

«لم افتح هذه النافذة منذ شهور».

بما إن العالم كله يتلصلص علينا فما حاجتنا للنوافذ.

أحضر العشاء. فتح جريدة اليوم الرسمية وأكلنا الكباب والطماطم فوقها. كنا نأكل وهو يشير إلى وجوه الرجال في الجريدة. ادعى بأنه يعرفهم كلهم ولديه قصة عن كل رجل.

بقيت قطعة كباب على وجه أحدهم فمد سركوت يده ودعس الكبابة في وجه الرجل، استغرق زمناً في ذلك، ساعدته ليتوقف وحاولت أن أخفف الأمر على يده المتعبة. كانت يده تتصالب وهو ينفعل ويذوب في غضبته.

ابتعدت عنه وتركته يهدأ وحده وحينما رفع يده كان وجه الرجل في الجريدة قد انمحى تماماً.

ذهبت لأغتسل وسمعت صرير النافذة وأنا أغمس وجهي تحت عمود الماء.

عدت سريعاً إليه وفي فمي ضحكة هائلة ومكتومة. قبل أن اطلقها كان سركوت قد نفذ بنصف جسده من النافذة. سمعت منخره يشفط



الهواء ويزفره. أوقد سيجارة وبقي يتلصص على العالم من نافذته التي لم يفتحها منذ أسابيع كما يقول.

لم اسمع الاطلاقة النارية التي اردته قتيلاً لكنني سمعت جثته تنقلب وتقع على وجهها.

تشجعت وزحفت نحو النافذة واغلقتها. تشجعت أكثر وقضيت أكثر من ثلاث ساعات زاحفاً في العيادة الخالية. لم أستطع الاقتراب من سركوت الميت. أتذكر بأني بكيت عليه كما يجب. كنت إذا توقفت عن البكاء أشحن عيني بأي ذكرى شخصية عن أبي وأمي وحصان ابن الرئيس وقصة حياة حكم.

استطعت أن أغفو من دون أية أحلام تذكر. لم أحزن لتركي عديّسة وحدة مع قفير النحل. أنا قلق لأني تركت قفير النحل وحده مع عديّسة.

يبدو أن المبنى كله يئن من الفراغ والخوف من الرصاص، لا أحد هنا سوانا أنا وسركوت الميت.

سحبته إلى مخزن صغير آمن ونظيف. لم ينزف كثيراً على الأرض لقد نبع الدم كله على قفاه وتشعب إلى ملابسه.

في الساعة الثالثة فجراً رفس الباب شاب ملثم. أيقظني ووقف فوقي محيطاً إياي برجليه.

«أين الطبيب؟»، وبعد أن سكّن قدمه على بطني «هل أنت الطبيب؟». وبعد أن وضع قندرته على رأسي «أنت تحب وضع القندرة على رأسك أليس كذلك».

«أنا معتاد على هذا بصراحة، في جمجمتي طبعة بعرض حذاء



الرجل البالغ وهي مخصصة لكي تريحوا عليها قنادركم وبساطيلكم. انها موجودة منذ عشرات السنوات. تكيفتْ وتطورت أباً عن جد».

سحلني الشاب الملثم إلى غرفة الطبيب. الظاهر بأنه تأكد بما لا يرقى إليه الشك بأني طبيب بشري؛ أنا أكثم طبيب الطيور والنحل والبهائم.

جلس على السرير وخلع بنطاله. انحنى وأظهر لي مؤخرته. هنالك عدة جروح وبثور يؤشر عليها. يقرب مؤخرته من وجهي ويشير إليها بيد ويقبض على الكلاشينكوف باليد الأخرى.

الفجر أهدأ مقطع في ذلك اليوم. داويت جراح المسلح ونسي أن يشكرني. حينما ارتدى بنطاله مسح بعينه على الجدران والشهادات المصفوفة عليها لكي يطمئن قلبه بأنه دخل عيادة طبيب فعلاً، أي طبيب وما هو اختصاصه؟، لم يكن هذا يشغله.

عندما شيعته إلى الباب نصحني بعدم الخروج؛ فالشارع في مهبط كل النيران. كل رصاصات الفريقين المتقاتلين تسقط هنا في وادي الأطباء هذا.

شكرت نصيحته واغلقت الباب خلفه بمنضدة كبيرة ثقّلتها بالكراسي والكتب والصناديق الخشبية.

فتحت المخزن لأعاين أحوال سركوت فوجدته يغط في موتته السابعة.

عاد دوي الرصاص يهز المكان من جديد.

انتظر قادماً يحررني وأحضر روحه وأحلم به دون جدوى. الباب تدفع والمنضدة تتزحزح رويداً رويداً.



دخل خمسة شباب بعضهم ملثم وبعضهم نصف ملثم. لم يحاوروني مثل سلفهم.

«هذا أخونا مصاب بصرعة غريبة. إذا سمع الرصاص يتخلى عن بندقيته ويركض نحو القناص أو يرفع سلاحه علينا وفي أحسن الأحوال يقذف بنفسه في منطقة مكشوفة».

قال أطولهم ذلك.

«دعوني أكشف عليه وحدي لو سمحتم، أرجوكم، أدخلوه إلى غرفة الطبيب».

تقدم المريض نفسه ولكمني. مشى نحو غرفة الطبيب واطلق من هناك نداءً خاصاً لي، من الواضح بأنه كان لي.

«تعال يا ابن الحمار».

دخلت وأغلقت الباب. على كرسي الطبيب جلس مريضي. طلب مني قداحة فاعطيته. طلب قدحاً من الماء فجلبت له قدحاً تأمل فيه وعثر على بعوضة داخله. التقطها وفركها على طاولة سركوت. لم يؤنبني بسبب البعوضة بل بدا مستعداً لمعاينتي.

يبدو بأنه تعامل معي كطبيب نفسي فظل يلح علي بأن أستجوبه.

«ليس عندي ما أسأله لك، ما رأيك أن تعود للقتال وتفرح قلوب أخوتك بك، أمسك بندقيتك وقلدهم فقط، أفعل ما يفعلونه وسترى النتيجة».

«أنت حمار إفلاطوني، من الذي منحك اجازة في الطب؟ اسمع يا حمار يجهل بأنه حمار.. أنت طبيب وأنا مريض. هكذا يتصرف أطباء



مدرسة التحليل النفسي، يسألون مرضاهم بضعة أسئلة ويتركوهم يهيمون في خيالاتهم ويومياتهم ومخاوفهم ومتاعبهم وكوابيسهم، التداعي الحر، هل سمعت بالتداعي الحر يا حمار يجل بأنه معزة، لا، لا لا أنت لم تعد حماراً. أنت حمار ميت. جيفة متعفنة».

اخرج مسدساً صغيراً من جوربه ووجهه نحوي.

«ما زلنا في العيادة يا أخي. حدثني عن أحلامك. هل ترى أسداً في الحلم. ثعلباً، معزة، نحلة، قرداً، فقمة، أفعى، تحدث يا سيدي الكريم».

سمح لي أن أتبول على نفسي وأظن أن حالته تحسنت حينما سمع خرير مثانتي على الأرض.

«كن حماراً ميتاً الآن»، قالها واسمَعني نصف ضغطة من سلاحه.

أغمضت عينيّ وفتحتهما لأراه مطرقاً رأسه في الأرض.

قبل أن يكتمل علاجه كلياً سمعنا أصوات أقدام تتراكض على السلّم. دخل الملثمون الآخرون إلى غرفة الطبيب وحملوا مريضي.

«انهم قادمون. لا تعاين أحداً منهم. هم يبحثون عنا فلا تقل لهم أين نحن ولا تقل لهم شيئاً عن مرض أخانا».

لحظات وانشغلت العيَادة بأنصاف ملثمين من الجماعة الأخرى. سمعت عدة اطلاقات قريبة كما لو كانت عند الباب.

طلبت مني الجماعة الجديدة أدوية للصداع ومعقمات وأي شيء مضاد للإسهال. أحدهم طلب مني تعليمه كيفية زرق الإبرة. انصرفوا باكراً ليعلوا صوت الرصاص مرة أخرى.



لقد قضيت ثلاثة أيام قبل أن أترك جثة سركوت وأهرب. زارتني جماعات مختلفة ومتضادة ومتقاتلة. كنت بالضبط في المنطقة الفاصلة بين فريقين متحاربين.

جماعة تدخل وجماعة تخرج. أنا الطبيب البيطري الخافر الوحيد الذي يعثرون عليه هنا. جماعة تركض وجماعة تركض خلفها. جماعة تضحك وجماعة تبكي. جماعة تبحث عن بنادول وجماعة تبحث عن فلاجين. جماعة مصابة بكسور مضاعفة وجماعة مصابة بنزيف حاد. يزورني كل هؤلاء وأتعلم بواسطتهم كل ما لم أتعلمه في الكليّة.

لا أعرف كيف خرجت من ذلك المعمعان، لكني خرجت وعدت إلى مواساة عديّسة بفقد حصانه.



(٢١)

إذاعة المستشار من بغداد

تقدم

رمشة عين

برنامج اسبوعي عن تفسير المنامات وتأويلات الأحلام.

تقديم

جميل فليح جبارة

زغل دهراب

اخراج

الدكتور عجيل غاچي

اسعدتم مساءً أحبتنا المستمعين وطبتم وطابت أوقاتكم بالمحبة والسرور والأمن والرحمة والمودة والسلوان.

معكم محدثكم جميل.. من إذاعة المستشار يقدم لكم حلقة على الهواء مباشرة من برنامجكم المحبوب رمشة عين برفقة زميله الشيخ الحاج زغل دهراب.



الحاج زغل: أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم أخوتي وأخواتي من إذاعة المستشار. كل عام وأنتم بخير. نحن سعداء حقاً بالتواصل معكم ومع أحلامكم الطيبة هنا.

جميل: تحدثنا في الحلقة السابقة عن علم تفسير الأحلام من ابن سيرين إلى الخواجة الكوثراني، ثم قلنا لكم إن الحلم رسالة إلى الصدور المقفلة. نحن أحياناً يا أحبتي لا نقضي وقتاً مع.. مع.

زغل: نفوسنا.

جميل: نفوسنا لذلك فنفوسنا تفوتنا.. الله.. نفوسنا تفوتنا.. نعم. لذلك تلبس قناع كلب أو نمر أو حمامة وتزورنا في العطلة.. في العيد..

زغل: في الليل.

جميل: في الليل عفواً. عندما ننام. عندما ننام تأتي الأفكار التي كان ينبغي التفكير بها ولم نفكر بها.

زغل: في الليل تأتي المسائل المؤجلة.

جميل: الله.. المؤجلة.

زغل: معنا اتصال.. ألو..

الاتصال: السلام عليكم، ليت الشيخ زغل يفسر لي حلمي. أنا مشدوهة البال بصراحة. كل يوم أنام وتطلع لي في المنام فأرة. أنا خائفة. اشتغل مدرسة روضة فماذا يعني ذلك.

زغل: حياك الله وبياك أختنا المستمعة. الفأر يعني حسود يتربص بك. اقطعي عليه الطريق بالاحسان إليه وكتم النعم التي في حجرك عنه. لا تخليه يشوف ما عندك من الفضائل والمواهب والهبات. اقضوا



حوائجكم بالكتمان، يبدو بأنك تتحدثين كثيراً عن خشلك وذهبك وأساورك وحجولك ونفانيفك.

المستمعة: لا، أنا لا أتحدث، أنا وحدي. أعيش وحدي. لا اتواصل مع أحد إلا تلاميذي.

جميل: قال الشيخ بأنه حسود حقود، تحملين بلا شك وشبهة ما يثير حسده. وقانا الله شر العيون الفضولية التي لا تقنع بما عندها.

المستمعة: هل كل الفئران تدل على الحسود؟ أنا أشاهد فأرة حاسوب..ماوس.

زغل: معنا المتصل فلان لا يحبذ ذكر اسمه.. ألو.. ألو.. تفضلوا.

المستمع: سلام عليكم، أنا مستمع قديم لبرنامجكم. معكم منذ الحلقة الأولى. المشكلة بأن الحيوانات لم تعد تأتي إلى أحلامي منذ أن تابعتكم. ما السبب؟ لدي سؤال آخر إلى الشيخ زغل. البارحة صعدت مع سائق تاكسي. واحد ضخم وأسمر وعينه اليسرى كريمة. يقول بأنه يعرفكم. حكى لي قصة لا يعقلها عقل العاقل لأنها غير معقولة عقلاً. هل هي صحيحة؟ عندي سؤال ثالث إلى الأخ جميل. قال لي السائق بأنك شنقت كلباً بعمود الكهرباء. هل هذا صحيح؟ كلب البيت. هل شنقته؟ لدي سؤال رابع...

جميل: أنا والشيخ لا نحب الكلاب. آخر كلب جنيناه هو جرو صغير يوم كنا صبياناً ههههه

المستمع: كلا. السائق يحلف ويقسم بشرف أهله بأنه شاهدك تشنق الكلب.



زغل: ومعنا اتصال من الأخت والمستمعة الدائمة ليلاس. أهلاً أختي. تفضلوا، معكم برنامج رمشة عين.

المستمعة: مساء الخير. كيف أحوالكم شيخنا. صحتكم وأخباركم. لم أحلم البارحة للأسف. سهرنا أنا وخطيبي وتأخرنا. ندمانة بصراحة على تلك السهرة. ليتني نمت وحلمت بحيواني.. أنتم تعرفون رأيي بكما.. الشيخ زغل والأستاذ جميل.. ياه كم أحبكم.. ياه.. أحلم يومياً واستقبل الحيوانات في منامي من أجلكم. كي اتصل بكم قبل النوم. وبصراحة تحسنت الأوضاع في أحلامي بسببكم. أشعر بتطور كل يوم. الحيوانات تزداد ألفة كل يوم. العضاض أقل. أوكي.. لا أطيل عليكم..ما عندي حلم.. لكن.. باعتقادكم..ما هي الحيوانات التي يجب أن أحلم بها..يعني..ما هي الحيوانات التي يستحسن أن تظهر في أحلامي.. ولو ظهرت فماذا سأفعل؟

جميل: شكراً ليلاس.. مستمعتنا الكريمة. احلمي بنحلة.. لو حملتِ بنحلة فعليك أن تحسني الظن بالآخرين. النحل يبدو واقفاً لأنه يرفرف باجنحته بسرعة لا تتلقفها أعيننا. يصعب أن نلاحظ رفيف أجنحة النحل لذلك نتهمها بالسكون.. لا تتهمي خطيبك بالبرود يا ليلاس.



(٢٢)

ظهرت في وجه راجحة ندبة.

لا يمكن للجميع مشاهدتها. إنها ندبة غير مرئية خاصة بالعشاق والمشتاقين والولهانين. يترك الحب آثار عجلاته على الوجوه على شكل مناجاة دائمية. وملامح راجحة مخططة بالدروب المتقاطعة. وجهها كله سكك ودروب من بقايا التجارب.

كانت في شقتي مع حكم. عرفت ذلك قبل أن أفتح الباب. صوت سفينة ينطلق من شقتي. بوق الارساء يزمر في ميناء ما داخل غرفتي. حينما فتحت الباب استمر صوت السفينة. تذكرته وذكّرني بأيام زيارتي لعيادتها مع أبي. راجحة تطلق صوت سفينة إذا مسّها الرجال.

عرفت مصدر الصوت فدخلت بنصف ظلي إلى غرفتي. كان حكم تحت راجحة وراجحة تزمّر في الميناء. بوقها يتداخل مع أصوات البقالين وصياحهم على بضائعهم مناكداتهم لبعضهم البعض.

انتبهت لوجودي ولم تتوقف عن الهبوط والاقلاع فوق حكم. حكم لا يلاحظني حتى لو لم يكن كفيفاً. لأن راجحة تحتله كلياً وتسحبه إلى داخلها. لم يكن المنظر شهوانياً بالنسبة لي. قد يثيرني زوج من دجاج الماء أكثر. كنت مشدوهاً بهول المنظر وطقوسهما الغريبة في المضاجعة.



فجأة انتفض حكم ودفع راجحة وقذفها جانباً. اتضح لي بأنها تبولت عليه. انقلبت راجحة على وجهها ثم استعادت وقارها ومنظرها الاعتيادي. أما حكم فقد تلقف طريقه إلى الحمام. سمعنا صوت طرطشة الماء ثم غطس في الهدوء. وبعد لحظات حزمت راجحة حقيبة قماشية ودست فيها رزمة كتب خاصة بثقافة حكم الجديدة المكتوبة بلغة بريل. وضعتها على كتفها ودخلت تستعجل عشيقها في الحمام ليخرجا معاً ويتركا باب الشقة موارباً للخيالات والظنون والوحوش وأنفار طائفتي الضالة.

فكرت أن أعود إلى عديّسة لنكمل عملنا معاً. فكرت أن أعد بعض الخطط والوصفات والاعلانات الخاصة بطائفتي. فكرت أن أجري خلف حكم وراجحة وأنضمُّ لقافلتهما غريبة الأطوار. فكرت وفكرت وفكرت.

في النهاية أخذني النعاس وخضت في حلم فارغ بلا حيوانات ولا بشر ولا جمادات. ايقظتني راجحة بلطمة على أذني.

«تعال معنا. ألبس ملابسك وضع خوذة النحال وتعال معنا».

أعرف بأن هذه المرأة وجدت نصفها المجنون الثاني وحولت نصفها العاقل إلى أرباع وأخماس وأسداس ورمتهم من أعلى شباك في عمارتها. لكني استجيب لها لاطمئن على حكم معها واطمئن على ذكرياتها مع أبي.

«أين سنذهب، لدي شغل ينتظرني عند النهر».

«اسمع. أنا وحكم نطوف في بغداد. حكم يتربص بالانفجارات. كل انفجار يحدث يخلف ثقوباً على الجدران وحكم يقرؤها بأصابعه».



لم أعر لها بالاً ولا أظن بأنها مهتمة بي. انصرفت عن دعوتها ولمحت لها بأني أريد الخروج واغلاق الشقة فانصرفت.

لم تودعني بسهولة. راجحة في ذلك اليوم لم تشأ أن تخرج من بالي ببساطة. لقد جرت خلفي حتى لحقت بي في الشارع. وصلت إلي وتخطتني. لم تكن تتبعني تحديداً، كانت تهم بابلاغي بتطورات حالتها. تخبرني كم هي هائمة بحكم. فالعشاق حسب راجحة ومثيلاتها يتدربون على المباهاة بمحبيهم في الشوارع مثل لاعبي الساحة والميدان.



(٢٣)

من بعيد ظهر عديّسة يركض ويتوقف على حافة النهر. يصنع بأصابعه حزاً طويلاً بمحاذاة النهر. يروح ويجيء ويخطط الطين بسبّابته.

لم يهدأ حتى بعد ملاحظته لوجودي. رميت أغراضي بجنب قفير النحل وجلست أتابع حركاته. حينما ابتعد كثيراً صحت عليه وافهمته أن الأخبار سيئة والأوضاع لا تبشر بخير وهذه الأرض معزولة وليست مأمونة وعليه أن يبقى قريباً مني.

وضعت الغذاء الاصطناعي للنحل وبقيت أراقب القفير لأكثر من ساعة. كل هذا وعديّسة يجوب الطين ويخططه ثم يرفع رأسه عالياً ليتلقط شيئاً ما من الأفق ويرسمه على الأرض.

جريت خلفه لأرى ماذا يرسم. بدا متعباً وصحته متهالكة وأظافره محشوة بالطين والدماء.

«هذه دجلة».

قال لي عديسة ذلك وهو يرمي جسده تحت قدمي من التعب. لقد رسم دجلة متعرجة وحاول تقليد النهر.

حملته بعيداً عن دجلة المخطوطة وقريباً من دجلة الحقيقية. أكبر حيوان محنط عاينته في حياتي.



وضعت رأسه على فخذي. وأتخذت دور راوي حكايات الأطفال الموشكين على النوم. ولأن عديّسة صبي غرّ وناقم على الجِد والجدية ضرب يدي التي تمسد ناصية شعره وانقلب على بطنه غافياً بلا حكاية.

«طيب، هذا أفضل، نم حتى أراقب طائفتي، انتبه لنفسك في الحلم فالغيلان تهاجم الصبيان الذين ينامون بلا حكاية في الأحلام».

رفس الهواء برجله رداً على كلامي وقال وهو يمط جسده من النعاس.

«أنا أخوّف الغول وأركب زوجته وأخته».

بعد ساعة تحرّك قفير النحل. كنت قد نصبت حنفية خشبية في أسفله وانتظر مجرى كمية كبيرة من العسل. انتظرت وانتظرت ولم احصل إلا على تلك الحركة. تكررت مرة ومرتين ولم يجري العسل بعد.

ارتفع عمود من الدخان في الجانب الآخر من النهر خلف مبنى لوزارة الدفاع. وسقطت قطرة عسل واحدة من طائفتي.

ساعدت هزات الانفجار على تدفق بضع قطرات من العسل. التفت عديّسة إلى ذلك. سألني لماذا يجري العسل مع هزة الانفجار؟ أوضحت له بأن الموضوع يتعلق بطريقة تصميمي للقفير. ما كان ينقص التصميم هو آلة ما تهز القفير وتحث العسل على النزول.

بعد أيام تأكد عديّسة بأن جهازي لا يعمل إلا مع الانفجارات. وحينما يسمع ويرى جرحى الانفجارات ويرق قلبه لضحاياها كان يلعن جهازي ويسيء الظن به. ومثلما ساهمت باغراق حصانه فأنا أساهم بقتل الناس.



هذه هي حدود فهم عديّسة.

حدود فهم عديّسة مكهربة بسوء الظن. عديّسة يكرهني.

ذات يوم قررت مصالحته واقناعه بأن لا دخل لطائفتي العسلية اللذيذة بالانفجارات كما لا شأن لي بما حدث لحصانه. لكن الملعون طلب أن أشتري له مذياعاً.

بينما ينزل العسل من القفير كان صوت زغل وجميل يزهق روح التفاؤل عندي.

عديّسة صار مدمناً على الاستماع إلى برنامج تفسير الأحلام الحيوانية. فكّر يوماً أن أساعده في الاتصال بجميل والشيخ زغل، كان ينوي مفاتحتهم بكوابيس الحمير التي كان يراها في مقبرة الحمير. ثم عن علاقته بحصان ابن الرئيس وأحواله مع المرض وضمور بدنه.

في النهاية. قررت أن أحكي له قصة جميل وزغل وكلبنا خاكي.

قلت له لقد اغتال هذان الرجلان خاكي.

قضى خاكي أواخر أيامه يحاول الدخول إلى تمثال الحرية. شوهد عشرات المرات يزأر ويموء وينبح تحت التمثال. عقد تحته حفلات جنس جماعية كان فيها الطرف المحتفى به. طرده الحراس والسابلة والسكارى.

خاكي يئس من النفاذ إلى تمثال الحرية.

عاد بعد ذلك إلى بيت جميل يحترمني. وضعهما الجديد كمقدمي برنامج تفسير أحلام مشهور؛ لا يسمح لهما بالاحتفاظ بخاكي.



لا أملك معلومات كافية ودقيقة عن ليلة اغتيالهم لخاكي. لكن حادثة تعليق كلب من ذيله بين عمودين كهربائيين مشهورة ومشهودة في حي الكرامة.



(٢٤)

النحلة العادية تتذكر الوردة الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة. تعرف الطريق إليهن وتحفظه إذا أرادت الرجوع. لكنها تفشل في تذكر الوردة السادسة. لا تتسع ذاكرتها لاسترجاع طريق الوردة السادسة.

بالنسبة لطائفتي فهي لا تتذكر أول وردة. طائفتي تنسى بسرعة. النحلة الاعتيادية تظهر ساعة الخوف. تستشعر الخائفين وتلاحقهم. أما نحلتي الجبانة فهي لا تعير بالاً للخائفين. بالنسبة لها ؛ هنالك شيء أصعب من أن تكون خائفاً. هو أن تكون. أن تكون فقط.



(٢٥)

يضع معطفاً صوفياً أزرق على كتفيه. لا يرتديه بل يتلفع به مثل عباءة. يمشي تحت سموم الشمس اللاهبة ويتوقف عند زير الماء. يغمس معطفه في الزير ويستخرجه ويعصره ثم يعاود وضعه على كتفيه. يدخل رأسه في الزير نفسه ليشرب ويرتوي ويبلل صدره.

يمشي برفقة راجحة. راجحة ملحقة به مثل فصل أخير في روايته. شاهدتهما مرة يقفان تحت ستارة مسجد. أخرج من جيبه علبة لبن رائب وفرغها في فمه. ووقفا عند الميزاب. فغر حكم فاهه ليملأ جوفه بالماء. ثم ابتعد عنه وهز كرشه. يقول لراجحة وللصبية المتجمعين حولهما: هكذا يصنع اللبن.

إنه المشهد نفسه بلا راجحة منذ ربع قرن.

كنت أجري خلف حكم في الأزقة التي تجاور زقاقنا وأنا طفل. كان يعتبرني جاسوساً للأطفال ونساء المحلة. مرسلاً للتلصص على ما ينقره في الطابعة. ساعدته كثيراً عندما سرقوها منه. فصخوها قطعة قطعة ورموها. نقبت معه عن الحروف. كنا ننتشلها من البرك والسطوح وسلال المهملات. ظل حزيناً يبحث عن حرف السين لشهور طوال. فصنعت له واحدَ وأهديته له. لم يشكرني وهرب به بعيداً.



بعد ذلك واظبت على اللحاق به وتتبعته. يقف في ساعة محددة من الظهيرة أمام مدرستنا. يظن أغلب التلاميذ بأنه ينتظرني. المخبولان يصحبان بعضهما. المخبولان صديقان ويتشاركان القصص والحركات البذيئة.

جندت نفسي أمام المدرسة بعد مغادرة التلاميذ. ولاحظت شاخص سيدة تنزل من سيارة أجرة وتتقدم نحوه وانا أقف بعيداً. بعيداً جداً قرب نهايات الأزقة.

تأتي السيدة كل يوم وتمنحه لفة جريدة، أوراقها معروقة من دسوم الأكل الذي تغلفه. وتأتيه أحياناً بالملابس والعطور والصوابين ومعاجين الحلاقة. عرفت بأنها معلمتي الخصوصية حينما نزلت له مرة مع ولدها التلميذ الصغير ذي الشعر السيال على جبينه والعوينات السميكة والأسنان المشبوكة بالأسلاك. ابنهما معي في الصف ولا أكاد أتذكر منه سوى تلك الأوصاف.

حكم لم يكن حكماً في يوم ما. تزوج حبيبته وأنجب منها. تقول الثرثرات الخائفة بأنه لم يكن أعمى. اشتغل طبّاعاً في شارع يعج بطقطقات الأصابع ونقرات الحروف. اسأله وأنبش باله عادة حينما يستبد بي الفضول.

«هل تستطيع طباعة كل الكلمات؟، قسطنطينية مثلاً؟».

ولا يجيب.

«عندما وجدت حرف السين الخاص بطابعتك وقبل أن أرجعه لك ابتلعته، لم أخبر أحداً بذلك، انتظرت حتى المساء لأراه في



المرحاض، كنت أستعمل سيخ الكباب لنبش برازي والبحث عن الحرف سين، لكنه لم يخرج أبداً».

لا يبدو مهتماً.

«هل تعرف أين ذهب حرف السين الأصلي؟، كنت زعلاناً على نفسي، لأني ضيعت حرفك فصنعت لك واحداً».

ولا يرد بكلمة. حكم يكتفي بالعبث بأنفه وتنظيف حروف طابعته بقماشة البازة.

«هل يقتل حرف السين إذا دخل إلى المعدة؟».

«يقتل إذا لفظته كثيراً وقلت إس إس إس».

قالها وانصرف، بعد سنوات حكيت الحادثة لوالدي فأمرني بالسكوت مع دمغة على جبيني، قال لي اسكت إس إس إس.

هذا ما يمكن تذكره من تلك الأيام. الباقيات المنسيات مسح عليهن حكم بحكاياته الجديدة.

أنه يطوف ويتسقط الانفجارات مع راجحة. يثير انتباه رجال الأمن والصحفيين والصبيان المشاغبين كثيراً. يحط برحاله أمام جدران البنايات والمحال ويمرر أصابعه على الثقوب التي تركتها المفخخات.

شاهدته آخر مرة مع عشيقته طبيبة الأسنان. يضع رأسه على جدار ملوث برماد انفجار قريب من شقتي، يمسد صفحاته كما لو كان كتاب شعر ويطرب له. يهز رأسه من الوله بالقصيدة. لقد رجحوا بأنها قصيدة. فكل ما يتعلق بحكم محض ترجيح واحتمال لايقين فيه.

أتلفت وأترقب تجمع الناس حول تصرفاته المريبة. أتخلى عنه



واستمتع بمنظره عن بعد، وهو مستمر بقراءة ثقوب الحطام، إنه يلوي عنقه كمن يقرأ جملة بليغة أو قاسية. ها هو يضرب راحتيه متأسفاً وهو يقرأ ويفك الحروف التي تصنعها الثقوب. يزفر ويبدي تأثراً بالغاً مثل من يقرأ ما يغيضه أو يستهجنه.

يتراجع قليلاً ويهجم على الثقوب. يمشي ويقرأ الثقوب التالية كأنه يقلب الصفحة. يطبطب على الجدار كأنه يغلق الكتاب. ثم يستأنف فتحه ويمشي بتأن وهو يتابع قراءة الثقوب.

بدأ الناس بالتجمع حوله، صبي، إثنان ثلاثة.

اقتربت منه ناوياً حمايته. لن أتدخل إذا سخروا منه. أمد يدي لأحجزه عنهم إذا ضربوه. وصل إلى آخر الجدار وهو مستغرق في القراءة وراجحة تطوقه بظلها، انحنى ومد يده على الثقوب في الأرض. كفه البدينة تتحرى الثقوب في الإسفلت. تمدد بتمام جسده وبسط يديه وتابع القراءة. لكزوه على ظهره ودفعتهم راجحة. لكنه لم يتوقف. كان كامل الانشغال بالكتابة وفك حروفها.

سمحوا له أن يستعد وقفته. أخرج من جيبه مطرقة صغيرة. استعمل طرفها المسنن لنقر الجدار. يبدو أن الأولاد يستمتعون أيضاً بمراقبته. ابتعدوا عنه وتركوه يطرق الجدار. إنه يكتب. حكم يرد على الثقوب بلغتها.

لاحظوا أنه لا يرد عليهم. مستغرق جداً بكتابته. تأخذه نوبة ضحك مرة. ونوبة بكاء خافت مرات. ثم يبدو يكتب بغضب. يجيب كتابة الثقوب التي خلّفها الانفجار بجدية بالغة. لم يرقهم تجاهله لهم. فزادوا



عليه اللكم والضرب. لم يعبأ بهم واستمر بكتابة ما يريد كتابته. وما يريد كتابته لا يفهمه إلا حكم ومن يكاتب حكم.

عندما شعر بأنه يكتب كلمة النهاية، شاغلهم قليلاً. ثم انطلق مهرولاً وركضوا خلفه. لم يكونوا في تمام الجدية التي تسمح لهم بالجري وراء مخبول ومخبولة. لم يكن ظرف المكان يسمح بذلك أصلاً. اختفت عائلة حكم وضاعت في الأفق. وضاع أثرها عنهم وعني.

تأكدت عندها أن حكم سيقضي فصل جنونه القادم قارئاً للثقوب. وسيجد الكثير من السطور المثقبة ليدرسها ويجيب عليها. في كل نشرة خبرية أسمعها أو أراها أتذكر مهمته تلك. إن عبارات مثل: انفجار سيارة مفخخة في، عبوة ناسفة على، هجوم انتحاري أمام، كلها مهمات طوارئ لحكم ومكتبة كبيرة من الرسائل.

لن أراه مع عشيقته مجدداً. سأسمع عنه في الأخبار وأرى من يحاول تقليده ويقرأ الثقوب مثله. وأشاهده في فلم أو مسرحية. حكم وراجحة تبخرا. تحولا إلى قصة.



(٢٦)

قبل أن أكتب هذا. أي قبل أن أكتب قبل أن هذا. تذكرت حادثة مهمة من أيام المراهقة قد تنفعكم في التعرف على أكثم كلافة.

عمري ١٦ سنة واصطحبني أبي معه في مناوبته الليلة على نهر دجلة.

ما جعل تلك الليلة تتكرر في رأسي طويلاً، هو إني مارست فيها أول ألعاب ذكورتي، لاحظت على أحد الزوايا رسمة لفتاة عارية. هي حسب ذاكرتي حزمة خطوط تصنع بتدويراتها جسم فتاة ترقص. هل كنتُ نائماً أو غافياً أو واقفاً أو جالساً. لا أعرف. ما أعرفه أنّي فتحت ملابسي لتلك الراقصة. وحدث الأمر بسرعة. تماماً كما في السينما. حيث تختصر المشاهد الجنسية لتقوم بتركيبها على طريقتك. تركّب للممثلين والممثلات أعضاءً من مكتبة الصور في رأسك. وتمنح الشاشة من جيبك بعض السنتمرات لتطلق سراح الأجزاء اللامرئية، ثم تكتشف أن أفضل شيء فعلته الشاشة هو عدم إرضائك. لإن إرضاءك يعني أن تظهرَ شخصياً في كل هذه الصور والأفلام.

حينما انتهيت كانت أصابع أبي تضغط على كتفي. دست على القطرات البيض برجلي ومسحتها بالأرض. دامت ضغطة أبي لحظة أطول من خمسين سنة. لاحظت غضبته وتخشبت جثتي في مكانها.



التقط طبشوراً من الأرض وراح يعمّق خطوط الفتاة التي ترقص على الجدار. سألني: هل هي واضحة الآن؟

شعرت بأنه الأب الذي يحاول مسك عصفور لابنه ويأمره بتعذيبه. وبدلاً من التظاهر بالخجل قررت أن أنصاع لرغبته تلك فقلت له إن بطنها غير واضح. سارع إلى الجدار وأعاد رسم بطن البنت الراقصة. ثم أضاف لرأسها خصلة من الشعر ووضع لها عينين وشفتين وأذنين وثديين.

«هل تراها كامرأة الآن؟».

«نعم بابا».

زرع الطبشور في رأسي وقال: «هذه لم تكن امرأة يا ابن الكلب، هل نظرت إليها جيداً، لم تكن امرأة، باوع زين، شفتها؟»، ألصق جبيني بالجدار وهو يصرخ: «شفتها؟».

لم تكن امرأة ولم تكن رجلاً. الشيء الذي دشنت معه رجولتي الأولى لم يكن من جنسنا. سيقول لي أبي إن أحد النزلاء وهو مهندس للري كان يقضي هنا ليلة في كل شهر ويتدرب على رسم نهر دجلة. كان يرسم نهر دجلة من الشمال إلى الجنوب خمسين مرة. كل مرة يرسمه بمجرى معين لأن مجرى النهر ينحرف قليلاً ويتحرك كل حقبة. كل عشر سنوات. كل عشرين سنة. كل ثلاثين سنة. كل أربعين سنة. ومجموع هذه الرسوم فوق بعضها يصبح شبيهاً بفتاة ترقص.

قبل ذلك، ناداني أبي من الحمام كي أبتعد قليلاً لأن حكم يزور المركز في تلك اللحظة، خرجت وتلصصت من الشباك على حكم الذي



اشتقت له. كان هناك كي يبلّغ عن سرقة طابعته. وهذا يحدث كل أسبوع تقريباً. دائماً يسرقون طابعته وينفشون حروفها. فلا يعرف الكتابة وتضيع عليه مواقع الحروف.



(٢٧)

ليس هناك من يسألني لماذا لا تذهب إلى النهر وتراقب مشروعك؟ تفرغ العسل وتسوقه. لا أحد يوجه لي سؤالاً عن أحوالي وطائفتي. لا حكم لا راجحة لا أحد.

أستطيع أن أكتب. نصحني المرحوم سركوت بالكتابة وها أنذا أكتب لكم. أجد سعادة في مراسلتكم. أكتب لسفلة وأوغاد وطيبين وخائبين وفائضين عن حاجة التاريخ، لجبناء وشجعان وأنذال ونبلاء، لهتلية وسيبندية وشقندحية، لأراذل وأكارم وجهلة وعلماء وعاطلين عن اليأس أو خارج الزمن. أكتب لكم.

كل هذا يجعلني أنسى.

لقد جرني عديّسة بالحبل. ربط جسمي بسلك كهربائي غليظ وأدخل كومة أوراق مجعلكة في فمي. حطم كعوب زجاجات بيرة على هامتي ففارقت الوعي. جرني إلى الشارع وتركني.

التقطتني عائلة بسيارة بيك آب بيضاء. وضعوني في العربة وانطلقوا بي إلى المستشفى، خافوا من حالتي واستفسارات رجال الشرطة فتركوني عند البوابة وانطلقوا بعيدا. لمحت طفلتهم تلّوح لي من خلف الزجاجة كما لو كانت تودع دباً من الصوف.



سألني الطبيب إن كنت أشعر برأسي اليسرى.

«أشعر بأنها يسرى فقط. هل علي أن أشعر بأكثر من ذلك. هل أصبح لي رأسان يسرى ويمنى؟».

«حرّك رأسك اليمنى».

«حركتها. هل ستفصلونها عني؟».

«حاول أن تفكر بهما معاً. هذا علاجك الطبيعي القادم خلال اليومين التاليين. قد نضطر لتركيب رأس اصطناعية لك».

عرفت بعد ذلك، بعد أسبوع أو أسبوعين بأني كنت داخل حلم داخل مستشفى داخل ردهة كسور. ساقي اليمنى شبه مهشمة. صدع مضاعف استلزم شهرين ليتماثل للشفاء.

سرق عديّسة طائفتي ونقلها إلى مقبرة الحمير. سأظل أتسقط أخبار طائفتي من الآخرين. اسمع بأن العسل الذي تنتجه شفاء لكل داء.

يقصد آل عديّسة كل الميسورين والمرضى والحالمين والمتذوقين للعسل الأصلي.

لو كان عديّسة بطلاً في رواية أكتبها لقمت بتغيير اسمه. لجلبت له اسماً يليق بمركزه الآن من وكالة الأسماء. هذا الأقرع المتسرطن الصغير العنيف الذي هشم عظامي يحتاج لقيافة جديدة واسم جديد يلائمة كصاحب جاه وسمعة وفرقة خارقة من النحل.

سيحتاج إلي على الأقل كمنظم للمواعيد والمظهر والمشاريع العملاقة الجديدة.



أقف عند نافذتي وأراقب نحلة تهم بالدخول إلى شقتي دون ميعاد.

أحدق في سوق البقالين وأرخي سمعي إلى بابي.

كليلة ودمنة سيطرقان الباب اليوم أو غداً أو البارحة.



هذا الكتاب

أنا لا علاقة لي بما جرى. أنا عشيرة من البشر اسمها الذين لا علاقة لهم. تقع عليهم آلاف الأسئلة وتهرسهم. تدهسهم وتفرم عظامهم، ولديهم جواب واحد قديم هو لا علاقة لنا. اقلبني وانزع ملابسي واكشط جلدي ستجد تحته عبارة لا علاقة له محفورة ألف مرة. انتصرتم أو انهزمتم. حزنتم أو فرحتم. نمتم أو استقيظتم. أنا لا علاقة لي أو لا علاقة لي.



رسمة الغلاف: مرتضى كزار

ISBN 978-9933352318



